

ليلي والذئاب



رواية

عنوان الكتاب: ليلي والذئاب

اسم المؤلف: عزة مصطفى عبد العال

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيداع: 2021 / 25384

التقييم الدولي: 2 - 250 - 998 - 977 - 978



تصميم الغلاف: منى الموجي

التدقيق اللغوي: د. هبة ماردين

رقم الطبعة: الطبعة الأولى

التسويق الداخلي: محمد وجيه

المدير العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.



ليلى والذئاب

رواية

عزة مصطفى عبد العال





إهداء

إلى تلك الأنثى التي أرادت أن تكون أي شيء غير ليلى تفترسها
الذئب.

إلى هؤلاء الذين يتحملون كل المواجه عدا الخيانة.
وإلى الذين وضعوا أقدامهم على الطريق ويأملون الوصول إلى
النهاية.

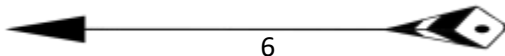
عزة مصطفى عبد العال

استهلال

وقفت أمام البحر أمسكت بالورقة والقلم وكتبت رسالتها وقبل
أن تضعها في القارورة الزجاجية قرأتها لنفسها مرة أخرى:

عزيزي البحر

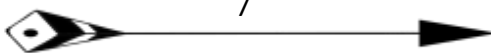
لم أعشق في حياتي سواك، رغم تأخر رؤيتي لك ولقائي معك..
لكن بمجرد معرفتي أن حب الأشياء يساوي البحر في الاتساع
زهدت الأشياء التي لم أعرفها وعشقت اتساعك؛ فلم أكن أحب
أبي مثل البحر ولا الحلوى مثل البحر، ولا صديقتي مثل البحر،
ولا الحياة مثل البحر، وإنما عشقت البحر فقط وسأبوح لك
بأسراري تباغًا وسألتي همومي وانكساراتي فيك وسأتركك تمحو
حزني ويتمي وتداعب مستقبلي بنظرة حانية.



ورغم أنني لا أعرف مكان ميلادي إلا أنني أشعر أن حياتي الجديدة
ستبدأ من عندك أو بين أمواجك؛ لأمتزج بتلك الأشياء التي لم
أعرفها في حينها وحين جاءت متأخرة. ذهبت بكاره فرحتي بها
فلا الحلوى عادت تشتهي فمي ولا أبي عاش لأحبه، ولا صديقتي
صارت صديقتي.

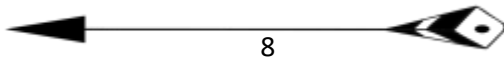
لكني أوصيك يا بحر حين أقف أمامك في أصعب لحظات حياتي
أن تنقيني من كل الهموم كما تنقي الثوب الأبيض من الدنس، وأن
تلفظ ما بداخلي من جروح الماضي، وأن تردني إلى ولدي الوحيد،
حيث أستكين إلى آخر العمر، حيث لا رجال ولا شهرة ولا غناء،
ولا سقوط في القاع. فقط امرأة تسعى إلى الكمال والاكتمال
والانسجام، تحلم بالنقاء وتمحو كل السواد الذي سطر صفحات
حياتها.

من صديقتك ليلى التي نجت من ذئب الخيال لتفترسها ذئاب
الواقع.



القسم الأول

حادث وذكريات بعيدة



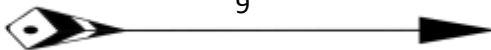
1

واصلت المروحية ارتفاعها خفقت القلوب واشرأبت الأعناق
برؤية قمة جبل سانت كاترين.. لمع بياض الثلج أمام أعينهم
فصاحوا من روعة المنظر! قال المخرج بصوت يحاول أن يتضح مع
صوت المراوح الهادر:

-سئلتك حول القمة، بينما أنتِ تقفين على باب الطائرة باسطة
ذراعيك تستقبلين الهواء في صدرك.

-مشهد صعب. قالتها بارتباك.

-هل أنت خائفة؟.. لا لا تخافي لقد ثبتناك بالحبال.. ستكون لقطة
فريدة لم يسبق إليها أحد، وستُحدث ضجة كبيرة؛ ليس فقط على
المستوى المحلي وإنما أيضاً على المستوى العالمي.. أراهنك أن هذه
الأغنية ستُباع بالملايين.



أومات برأسها وهي تتصنع ابتسامة باهتة.. لازل الخوف يعيش في قلبها، لكنها تحت سطوة حلم النجاح والشهرة، وهذه أغنيتها الثانية بعد نجاح الأولى، والصخب الذي أحدثته بكلماتها الرقيقة وتصويرها الفريد كنوع من المغامرة "فتاة تهرب من خاطفيها وتغرق بزورقها وسط البحر، وبعد أن يغوص الجسد في القاع تجد نفسها على السطح محاطة بمجموعة من حوريات البحر يشاركنها الغناء".

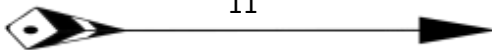
طلبت من المخرج أن تكون أغنيتها الثانية أكثر جرأة؛ فهذه هي فرصتها الوحيدة للولوج في عالم الشهرة، لتقفز إلى القمة ويتلأأ اسمها فوق عرش الغناء ويتميز صوتها وسط الأخريات. ثبتوا الحبال في خصرها، وقد نجحت الملابس الثقيلة في إخفائها، أمسك المصور بالكاميرا في وضع الاستعداد، صاح المخرج: "الآن".



نهضت من مكانها، اقتربت المروحية من قمة الجبل، وقفت أمام الباب المفتوح، مارست لعبتها القديمة للتغلب على الخوف وبدأت العد:

10 9 8 7 6 5 4 3 2 1

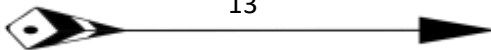
أخذت نفساً عميقاً، ثمّ تقدمت خطوة وفتحت ذراعيها، داعب الهواء أطراف معطفها ولفح وجهها ببروده الجميل؛ فأغمضت عينيها وابتسمت، صاح المخرج: "رائع!" في نفس اللحظة لمست المروحية حافة الجبل؛ فاختل توازنها ومالت بهم، حاولت ليل التثبيت بأي شيء والوصول إلى مقعدها لكنها سقطت من الباب، سقطت لمسافة ثلاثة أمتار، ثمّ أوقفتها الحبال المثبتة في الطائرة، عندما نظرت لأعلى وجدت الطائرة تشتعل فتخلصت من الحبال الواصلة بينهما وسقطت على قمة الجبل، بينما الطائرة تتحطم وتهوي بكل من فيها. المخرج والمساعد والمصور والطيار حتى سقطت أسفل الجبل محطة مشتعلة.



وقعت ليلى فوق ندف الثلج الذي يغطي قمة الجبل، خفت ليونة الثلج من شدة اصطدام الجسد بصخر الجبل، أغشى عليها للحظات من شدة الصدمة ولم تفق إلا بعد أن تسربت البرودة إلى أطرافها، فتحت عينيها ببطء ولم تبصر سوى بياض الثلج، ظنت للوهلة الأولى أنها في عالم ما بعد الموت، مرت عدة دقائق قبل أن تجرب تحريك جسدها، فمالت على جانبها واعتدلت ودارت رأسها في كل الاتجاهات ورفعت ذراعيها في الهواء وحركت ساقها اليسرى، أما اليمنى فقد تألمت كثيراً، حاولت استعادة المشهد لتستوعب ما حدث وتصدق أنها نجت وأنها لازالت على قيد الحياة، بحثت عن الهاتف ومن حسن الحظ تذكرت أنها ألقته في جيب المعطف أثناء التصوير. أمسكت به وحاولت الاتصال بأحد أي أحد لكنها لم تحصل على إشارة اتصال؛ ففي قمة الجبل لا توجد شبكة هاتف محمول أو شبكة نت... عرفت أنها لن تتمكن من

إجراء أي مكالمة... نظرت حولها فلمحت صخرة كبيرة على مرأى البصر؛ فزحفت لتستند عليها وتحمي بها من هبات الريح. وصلت بعد معاناة مع الألم، أسندت ظهرها عليها ومدت ساقها أمامها، كل ما يشغلها هو أن توقف النزيف قطع طولي بالساق اليمنى لا تدري ماذا تفعل معه سوى أنها خلعت قطعة من ملابسها ولفتها عليه بإحكام فتوقف تدفق الدم.. شعرت بعدها بالتعب وبجفاف الحلق ربما من شدة الصدمة أو من الخوف، أمسكت بقطعة من الثلج ووضعتها في فمها واستسلمت للخدر الذي يسري في جسدها، قالت لنفسها: "لا بد أن أجهزة الرداد التقطت موقع تحطم الطائرة وسيرسالون فريق إنقاذ" وقالت بأمل وهي تضغط بكفها على ألم شعرت به للتو في كتفها الأيسر: "بالطبع سيكون هناك اهتمام خاص بي".

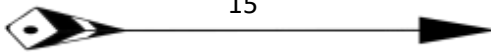
انزوت تحت الصخرة بعد أن غطت جسدها بكل ما وجدته أسفل الصخرة من أغصان الشجر وأشياء أخرى ألقت بها الريح



هناك في دورات عديدة، وكانت متعبة بالقدر الذي جعلها تنام وتغيب في نوم عميق أشبه بغيبوبة الموت.. نامت بينما الشمس تسقط من أعلى الجبل في المغيب ويحاطها الظلام من كل جانب.. تحولت إلى مجرد ظل تحت ضوء القمر الذي بدا متوهجاً وكبيراً على غير العادة، إنها ليلة اكتمال القمر ليلة البدر مشهد كهذا لم يكن يفوتها السهر لمشاهدته لكنها نامت وسط البرد والظلام. وعندما استيقظت على ضوء الشمس الذي اقتحم عينيها بقسوة، كان ضجيج المروحية يدور برأسها يملأ أذنيها بالطنين، لكنها كانت تظن نفسها في حلم كابوسي من أحلام اليقظة.. هكذا اعتادت منذ زمن طويل أن تهرب من رعب الواقع إلى عالم أكثر رعباً، فترى نفسها وسط خرائب وزلازل وبراكين وسيول، والعالم حولها يتدمر ويتحطم ويغرق.. ربما حاولت في بعض المرات أن تهرب وتنقذ نفسها لكنها لم تحاول ولو مرة واحدة إنقاذ أحد أي أحد.

استعادت المشهد كان ضجيج الطائرة يصم أذنيها، ظنت أنها اللحظة المناسبة لالتقاط الصورة.. فتحت يديها لتحضن الهواء وأغلقت عينيها لثوان معدودة، تمنى خلالها أن ينتهي المشهد وحين فتحتها لم تجد الهواء ولا الطائرة ولا المصور لم تجد سوى جثة الثلج الباردة، نظرت إلى الهاتف مرة أخرى لم تجد شبكة ولا نت، كأنه تحول إلى قطعة معدن صماء، ألقته في جيب المعطف واصطدمت يدها بقطعة من الشيكولاتة غالية الثمن كانت تحتزنها لما بعد انتهاء التصوير فعلى حد علمها أن الخوف يحرق منسوب السكر في الدم، ويجب تعويض الفاقد في نفس الوقت كي لا نُصاب بداء السكري، فتحتها بحرص والتهمتها بشهية كأنها تتذوق الشيكولاتة لأول مرة لكن الواقع إنها لأول مرة منذ زمن طويل يهاجمها الجوع بهذه الشراسة ويعيد إلى جثة الذاكرة الحياة:

- أرجوك يا مس أنا جائعة.. جائعة جداً.



- لن تأكلي طوال اليوم عقاباً لك على كذبك.
 -لن أكذب مرة أخرى أعطيني رغيف خبز أو أي شيء آكله.
 -لن أعطيك إلا إذا اعترفت بالسرقة.
 -أنا لم أسرق.
 -تصرين على الكذب!.. ومن أين أتت الأقلام التي وجدناها في حقيبتك.
 -سأقول لك الحقيقة؛ بعد أن غادرت المعلمة وجدت الأقلام في المكان الذي كانت تجلس فيه فأخذتها ووضعتها في حقيبتي.
 -إذا أنت سارقة ولن تأكلي عقاباً لك.
 -آه يا بطني.

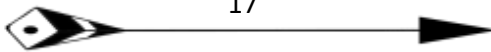
تضع يدها على بطنها وتدخل في نشيج بكاء متواصل، بينما الصقيع يتسلل إلى أطرافها من أرضية الحجرة المظلمة وهي تجلس في منتصفها بلا فرش أو غطاء، ولم يسمحوا لها بالطعام في اليوم



التالي إلا بعد أن أقسمت ألا تكذب وألا تسرق رغم اقتناعها
بالفعل أنها لم تسرق ولم تكذب.

كان مشهد الشمس التي تشرق في محاذاة الجبل في غاية الروعة
والجمال لكنها أيضاً في غاية الإعياء، ولو كانت في طبيعتها
لالتقطت لنفسها العديد من صور السيلفي، أرهفت السمع لعلها
تسمع أصواتاً قريبة، لكن أذنيها لم تلتقط سوى همهمات الهواء
نتيجة اصطدامه بقمة الجبل.

شعرت أن الغناء وحده قادر أن يعيد إليها الحياة؛ فدننت
بكلمات أغنيتها الجديدة بدأ صوتها مبوحاً، ثم أخذ يعلو شيئاً
فشيئاً فيستقبله الهواء البارد ويردد صداه الجبل الشاهق وحين
وصلت لنهايتها تذكرته؛ تذكرت الشجار الذي دار بينهما في
الصباح وغضبه غير المبرر.. ودت لو عادت لتعتذر له، ودت لو
ألقت نفسها بين ذراعيه لتشعر بالدفاء لمرّة أخيرة.



كان يقف في مواجهة النافذة المطلة على كورنيش النيل محاولاً السيطرة على انفعالاته فتخرج الكلمات مضغوطة من بين ضروسه:

-لم يكن هذا اتفاقنا؛ لقد اتفقت معك عندما نتزوج أن تعترلي الغناء وأنت قلت لي لن أغني لأحد غيرك.

غضبت وضغطت على شفثيها كي لا تفقد هدوءها المعتاد، ثم تصنعت ابتسامة مع نظرة غواية ومالت عليه وهي تهمس:

-لكنك أعطيتني وعداً بإيجاد مشروع حياتي.

ابتعد عنها بعصبية أزعجتها وقال بانفعال:

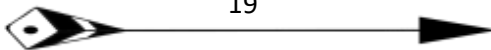
-لم أكن أقصد الغناء والحفلات والفيديوهات والسهرات، كنت أقصد أن تتأهلي لتكوني شريكة في أحد المشروعات التجارية.

-أنت رجل أعمال ناجح ماذا ستفعل بشريكة مثلي لا تعرف في حياتها سوى الغناء؟

رمقها بنظرة من جانب عينيه التي تستشيط غضباً قبل أن يتحرك وقال بحدة:

-لا فائدة من الجدل... افعلي ما شئت لكني غير راضٍ.
ثم غادر إلى عمله ربما لا يعود لأسبوع كامل سيقضيه مع زوجته وأولاده لينسى عنادها، لكنها لم تهتمِّم، هي تعرف كيف تروضه وكيف تحصل منه على ما تريد، كل ما عليها هو أن تستعد للعمل وتجهز نفسها للظهور أمام الكاميرا.

شعرت بحنين غريب إلى رؤيته؛ فأمسكت الهاتف وأخذت تقلب في استديو الصور واحدة فواحدة، وتقف عند كل صورة لتستعيد المشهد والذكرى؛ صورة زفافهما بفستانها الفريد الذي أحضره من أشهر بيت أزياء باريصي وصورة وهما في الطائرة في طريقهما لقضاء شهر العسل، وصورة وهو في مكتبه وفي النادي وبين أصدقائه.



كم تشتاق إليه!

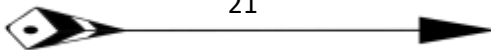
مضت الساعات الأولى من النهار ولم تظهر أية علامات لمجيء فريق إنقاذ، تسلل اليأس إلى قلبها رغم يقينها أن الطائرة ظلت تتهاوى حتى سقطت أسفل الجبل وأنهم حتماً سيفتقدون جثتها ويبحثون عنها في كل ركن من الجبل لكن لا أثر لأي صوت أو أي بارقة أمل.

انتهى النهار وسقطت الشمس أسفل الجبل في المغيب.. شعرت أن الموت يحوم بأجنحته حولها وربما تتحلل جثتها في القمة قبل أن يكتشفوا وجودها، فأغلقت عينيها واستسلمت ليد الموت أو النوم.. غابت في متاهات عميقة.. غابت في ظلام دفين يغلف روحها.. غابت....

لا تعرف كم ستصمد ربما ليوم آخر أو يومين أو ثلاثة على الأكثر، فهي بلا مأوى أو مأكل لا تملك سوى قطع الثلج التي تلتهمها من وقت للآخر ليستكين في جوفها الجوع والألم.. وتلك



الساق الجريحة إن كانت استطاعت وقف نزيها فإنها تعاني من ألم الجرح وألم الوحدة وشعور الضياع.
ملتحفة بأغصان الأشجار، غابت في النوم لليلة ثانية وهي لا تعرف إن كانت سترى شمس النهار مرة أخرى أم ستظل نائمة في حضن الجبل إلى الأبد.. غاب جسدها في النوم وظل عقلها في حالة من النشاط الفائق يستعرض كل أحداث حياتها منذ وعت الدنيا وحتى لحظتها الراهنة كفيلم سينمائي سريع.



2

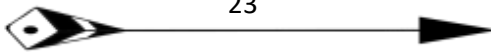
كانت تخطو أولى خطواتها في ملجأ أيتام مجهول الهوية ربما كان تابعاً لإحدى المؤسسات الخيرية التي لا تتذكر لها اسم كل ما تعرفه أن جدرانها باهتة نخرت فيها الرطوبة والعفن إضافة إلى عفن بدنها، فلا وجود لأُم تنظف الملابس وتغسل الوجه واليدين، لا يحدث ذلك إلا في حضور الضيوف من أصحاب القلوب الرحيمة أو المسؤولين الذين يعتمدون على بُعد المسافات لوجود الملجأ في منطقة نائية، ويكتفون بالزيارة الشهرية لدفع أجر العاملين فيه ومتابعة الأعداد التي تزايد وتتناقص من النزلاء.

صغيرة ذات سنوات ثلاث لا تعرف من عالمها سوى أطفال يشبهونها في القذارة وفي البؤس، الخوف هو مشاعرهما الأولى في الحياة عرفته مع امتداد خطوط ظلام الليل حيث تُطفئ المشرفة الأنوار وتأمّرههم بالنوم وإغلاق العيون؛ منذرة إياهم بأن من

سيخالف الأمر ويفتح عينه سيأتي أبو رجل مسلوخة ويأكله، فتغلق عينيها بخوف وهي تشعر بوقع خطواته واقتراب أنفاسه من وجهها وتشم رائحته الكريهة المزرنخة... لكن في الحقيقة لم تكن سوى رائحة أنفاس المشرفة التي تمر عليهم كل ليلة لتتأكد من نومهم.

يظل صدرها يعلو ويهبط عدة مرات، ثم تذهب في النوم.. نوم متقطع تتخلله كوابيس ومغامرات أبو رجل مسلوخة مع الأطفال.. وحين تستيقظ في منتصف الليل وتجد الظلام لا زال جاثماً فوق الصدور تبكي بكاءً مكتوماً كي لا يصدر منها صوت أو حركة.

عرفت فيما بعد عندما ذهبت إلى المدرسة أن الأطفال الصغار ينامون في أحضان أمهاتهم كي تدفع عنهم الكوابيس والبكاء، لكنها كانت بلا أم بلا أب بلا بيت، فهذا هو بيتها الوحيد تأكل طعام لا تريده وتلبس ملابس لا تحبها، وأحذية قديمة يتبرع بها

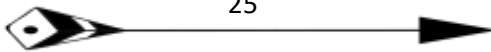


بعض القادرين للفقراء والأيتام وفوق كل هذا فهي لا تملك مصروفاً.

حين رأت البنات يشتري الحلوى من مقصف المدرسة عرفت إنهن يحصلن على بعض النقود يمتلكن حرية التصرف فيها وتُسمى مصروفاً، اعتقدت بتفكيرها البسيط أنه حق مكتسب لجميع الأطفال، فتجرات وذهبت إلى المشرفة تسألها عن المصروف والتي لطمتها على خدها لكمة قوية جعلتها تميل إلى الجانب الآخر، لكنها قاومت السقوط وقاومت البكاء، وفي اليوم التالي بعد ليلة قضتها المشرفة في مباحثات مع المسؤولين ألقى أمامها ربع جنيه ورق، تهلل وجه ليلي برؤيته وأمسكت به بحرص شديد وهي تسير بزهو تشعر لأول مرة أنها تمتلك شيئاً تريده، ولم تكن تعلم أنه لن يشتري ما تراه في أيدي البنات، إلا حين وقفت أمام باب المقصف وأعطته للعامل وأشارت على تلك الأشياء التي تراها في أيدي البنات ولا تعرف لها مسمى فهز العامل رأسه بأسف

وأخبرها أن ثمنها أكثر من الربع جنيه، لأول مرة تعرف مذاق الهزيمة "أعطني أي حاجة بربع جنيه" قالتها وعينيها معلقة بالحلوى ذات الورق الملون البراق، فمد يده إليها بمصاصة بثمان الربع جنيه أخذت تلعبها بعمق وتلذذ كي توهم الجميع أن هذا ما تريده وتشتهيه.

كانت هذه بدايات حبها للتمثيل أما شغفها بالغناء لم تكتشفه إلا في حصة الموسيقى حين كتبت المعلمة النشيد الوطني على السبورة وطلبت من كل بنت أن تنشده بمفردها كي تميز اللائي يمتلك أصواتاً متميزة لتستعين بهن في الحفلات والأنشطة المدرسية، وحين جاء الدور عليها وغنت اقتربت منها المعلمة ووقفت بجوارها وساد الصمت في الفصل كله وكلما انتهت تحثها المعلمة على الغناء مرة أخرى.



حينها اكتشفت أن لها صوتاً جميلاً أو أنها تمتلك شيئاً لا تمتلكه سائر البنات، وتأكدت من ذلك عندما التففت حولها في الفسحة وطلبن منها الغناء. استجابت لرغبتهن بسعادة وغنت فأعطينها قطعاً من الحلوى التي في أيدهن والتي لا تعرف لها مسمى أو مذاقاً.

" هل هذا الغناء جميل إلى هذه الدرجة " كانت تسأل نفسها في طريق العودة وهي تتحسس جيبها المنتفخ قليلاً بالحلوى، لا تذكر أنها سمعت أغاني من قبل سوى مصادفة وهي تعبر الشارع مر من جوارها موتيسكل يصدح مسجله بالغناء، هذه هي الحقيقة الأولى التي تأكدت منها أن الغناء شيء جميل.

عندما حكّت لزميلاتهما في الدار ما حدث طلبن منها أن تغني ذلك النشيد فترنمت بصوتها العذب كما يشدو العصفور الذي يقف عند الشرفة الوحيدة في غرفتهم المشتركة، وكانت المرة الأخيرة التي يسمعن غناءها؛ فقد صادف اللحظة التي غنت فيها



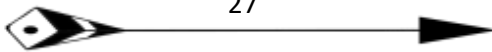
حضور سيدة تبحث عن طفل للتبني وأثناء تجولها بين الأطفال
وسماعها لصوت ليل أشارت عليها وقالت:
-أريد هذه البنت.

-لو طفل أصغر سنًا سيكون أفضل "قالها زوجها وأضاف" ستربينه
على يدك كما لو كان ابنك.
-لا زالت صغيرة لم تتجاوز الثامنة.
قالتها بحزم فهز رأسه بالموافقة.

هكذا

قالوا لها أنها يجب أن تذهب مع أسرتها الجديدة، لم تفهم في بادئ
الأمر كيف صار لها أسرة وأم وأب وقد أخبروها من قبل أن أمها
وأباها ماتا أو مجهولو الهوية.. وسألت نفسها هل أحيهما الله من
أجلها!

-انسي كل ما كنت فيه.
قالتها المرأة التي قالت أنها أمها وأضافت:



-أنت بنتي هذا كل ما يجب أن تعرفيه.

وأشارت على زوجها:

-وهذا أبوك إبراهيم زهدي صاحب قهوة زهدي أكبر قهوة في حي

الدرب الأحمر ولن يكون لك إخوة لأنها إرادة الله.

هزت رأسها بخوف لأنها لا تعرف من المشاعر سوى الخوف، وهذا

ما لاحظته المرأة التي تبنتها عندما وجدتتها لا تأكل إلا وهي تنظر

إليها تراقب نظراتها بخوف.. وعندما تنام تغمض عينيها وهي

ترتجف.. أما إذا حاولت الاقتراب منها أو لمسها أثناء النوم فترى

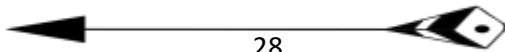
إشارات الفزع في وجهها.. ولم تتغير ردود أفعال ليلى إلا حين رأت

كوابيس الظلام وصدر منها صوت بكاء مكتوم، فأسرعت إليها

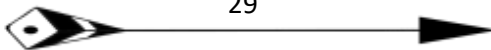
وأضاءت المصباح الكهربائي وجلست بجوارها وأصررت على معرفة

سبب البكاء حينها حكّت لها عن كوابيس الظلام وعن الأشباح

التي تخطف الأطفال في نومهم.



شعرت سهير المرأة التي تبنتها بعمق مأساة أطفال الملاجم.. ففي اللحظة التي تعاني فيها بعض النساء من الحرمان من الأمومة يوجد أطفال يعانون من حرمان المشاعر ودفء الأسرة، ودت لو تبنت كل أطفال الملجأ لكنها تعرف إمكانيات زوجها المادية فايراد القهوة بالكاد يكفيهم ولا فائض لتلك الأفكار التي تراودها...
يكفيها أنها استطاعت إقناعه بتبني طفل واحد ليشغل أوقات فراغها.. تمنى أن يكون هذا الطفل صبياً كي يترك له إدارة القهوة لكن عندما رأى إصرارها أمام ليلي رضي واستسلم لاختيارها.
ومنذ تلك الليلة لم تترك ليلي تنام وحدها ولا تتركها في الظلام بمفردها، ومنذ تلك الليلة فهمت ليلي أن كل هذه الكوابيس مجرد أوهام في عقل طفلة ساهم في صنعها مربية غير مؤهلة للتربية.



3

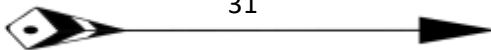
صار الغناء مشروع ليلي وهدفها في الحياة وتعرفت من خلال متابعة برامج التلفزيون على أسماء المغنين والمغنيات وحفظت الكثير من الأغنيات القديمة والجديدة وكانت ترددها أمام زميلاتنا في المدرسة ولا تمر إذاعة المدرسة اليومية من دون صوتها الجميل يشدو بالنشيد الوطني.

وبدأت تتذوق طعم تلك الحلويات التي لم تكن تعرف لها اسماً وصارت تملأ جيوبها وفمها من خلال ذلك المصروف الذي يساوي ما تراه في أيدي البنات، وصارت تبدل الملابس النظيفة والأحذية الجديدة، وكما عرفت ألوان الملابس عرفت ألوان المشاعر مثل الحب والكره الرضا والغضب الفرح والحزن.. عرفت أن كل شيء في الدنيا له نقيض وهي انتقلت إلى هذا النقيض انتقلت من الخوف إلى الأمان من الحرمان إلى الشبع... تمننت لو كانت أخذت

كل صديقاتها معها... تمنى لو زارتهم وأخبرتهم بكل ما عرفته وعاشته... لكنها تعرف أنها بذلك ستعذبهم وتُشعرهم بألم الفقد وتُعمق داخلهم شعور الحرمان.

اكتشفت أن للحياة مذاق الحلوى، وأن للنوم أحلام وردية ولأول مرة تجد من تحكي له عن يومها في المدرسة وعن صديقاتها وعن حبها للغناء والموسيقى، ولم تكن تعلم أنها بالنسبة لسهير الهدية الربانية التي أرسلها الله في الوقت المناسب لتملأ خواء روحها بعد أن تيقنت بعدم صلاحية زوجها للإنجاب، رضيت بما قسمه الله وارتضت بأن تتبنى طفلة تؤنس وحشة أيامها.

كانت تشعر أن زوجها يحترق من الداخل بسبب عدم قدرته على الإنجاب وينظر إلى الرجال الذين يتوافدون كل يوم على القهوة ويتحدثون عن أولادهم ومشاكلهم نظرة حسرة، لكنه يعود يسترجع ويستغفر ويقول في نفسه: "إنها أرزاق قسمها الله بحكمته

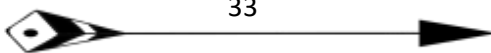


فلو كان لي خير في الولد لأعطاه لي"، وقبل أن يتخذ قرار التبني كان يتمزق كلما عاد إلى البيت ورأى سهير تحفي دموعها وحزنها، فيستسلم ليد الشيخوخة تعبت به وتصيبه بالوهن والزهد في الحياة.

جمعت جدران هذا البيت ثلاثة ممن فقدوا الأمل في الحياة إبراهيم بعجزة وسهير بحرمانها وليلي بيتها لكن ها هي الحياة تقاسمهم ابتسامة حنون؛ فلم يهتم إبراهيم بليلي في بادئ الأمر، ثم لاحظ بعد مجيئها بكثرة الحركة في البيت الصامت صمت المقابر كما لاحظ اهتمام ليل به كلما عاد وسرعتها في تحضير الطعام، كما أثر فيه جلوسها جانبه عندما يجافيه النوم وخوفها عليه حين يهاجمه المرض، تذكر مقولة لأمه كانت ترددها بكثرة "البنت فاكهة البيت" ويزيد عليها البنت فرحة البيت وضحكة البيت وزينة البيت وروح البيت.

كانت تكبر أمام عينيه طازجة وشهية لعله أراد أن يمد يده عليها أو يمس أنوثتها التي تفتح كوردة مغلقة ترتشف رحيق الحياة ويفوح عبيرها.. لعله رآها في حلم منسي وأبصر تفاصيلها... لكنه تحكم في تلك الرغبات المتصايبة فهو رجل كبير غلبه المرض والقهر والحرمان، كما أنها ابنته إن لم تكن من صلبه فقد نبتت في بيته، وشغل نفسه في التفكير في مصير القهوة من بعده وفي بيته العامر بالخير إذا أصبح خرباً بالفقر فتلوح له ذكرى عن ربيع أخيه غير الشقيق، فقد رآه في رؤية منذ سنوات بعيدة رأى أنه يسلمه مفتاحاً ذهبياً، وعندما استيقظ لم يجد للحلم معنى أو تفسيراً فقد كان وقتها في كامل عافيته لم يتمكن منه المرض فلم يشغل باله بما رأى.

لكنه لاح له في تلك الأوقات التي تمكن فيها الوهن من بدنه.. تذكر أخاه بعينه الوحيدة وضربة المطوة في وجهه، قدر بحساباته أنه قضى مدة عقوبته وخرج من السجن بعد شجار غيرة راح



ضحيته غريم له، قرر ألا يترك القهوة التي أفنى عمره فيها لينهبها صبيه الأعرج بعد أن لمح له مراراً وتكراراً برغباته المدفونة في امتلاكها.

وبعد أن أخبره الطبيب بوصول الكبد إلى مرحلته الأخيرة حيث لا دواء ولا علاج يجدي. اتخذ قراره بالبحث عن أخيه؛ فخرج في الفجر واستقل القطار المتجه إلى الصعيد، وبحث عنه في الشوارع والمقاهي وفي ثنايا الطرق فهو يعرف أن لا مأوى له منذ فرط في بيت أبيه وباعه برخص التراب وتبديد ثمنه على تلك الراقصة التي سلبتة ماله ومستقبله وتخلت عنه ككلب أجرب لا قيمة له.

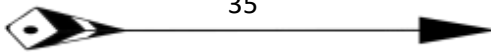
وبعد عناء وجده يسكن إحدى العشش الموبوءة، سحبه من يده دون كلام حتى وصل محطة القطار وهناك أخبره برغبته في إنقاذه من الضياع وتسليمه مفاتيح القهوة، بكى ربيع من شدة الفرحة ولم يصدق أن أخاه بشحمه ولحمه يقف أمامه بعد أن فرقت

بينهما السنون والهموم، ولم يعرف أحدهما أي شيء عن الآخر،
حزن الأخ أخاه وعاد بصحبته.

وفي الطريق كان القطار يتأرجح بالأمل في نفس أحدهما وباليأس
في نفس الآخر أحدهما مقبل على حياة لم يخطط لها ويسعى لجني
ثمارها، والآخر يستقبل الموت رغماً عنه. أحدهما فاقد لكل شيء
والآخر رغم المرض يمتلك الستر والكفاف.

وصل القطار كأنه قطار العمر يصل إلى محطته الأخيرة؛ استلم
ربيع مكانه في القهوة عمل وإقامة... وفي نفس الوقت وصل التعب
بإبراهيم ذروته ودخل في سكرة الموت، وهذا ما رفضت ليل
تصديقه والتعايش معه فهي بالكاد عثرت على أب وعائلة ومأوى..
بالكاد تذوقت شعور الأمان ونسيت ذكريات الخوف.. بالكاد
عرفت الشبع من الطعام والنوم والأحلام.

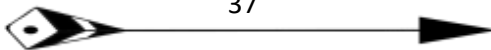
جلست أسفل قدمه تقبلها فتلامس دموعها جفاف جلده
وشحوب لونه فيقشعر جسده ويتمنى لو كانت ابنته من صلبه



ويتمنى لو كان العمر يمتد به ليرعى يتيماً آخر في بيته؛ ليحظى بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم في الجنة، وظل يستغفر وأقسم بينه وبين نفسه أنه لو امتد به العمر فلن ينظر إليها نظرة اشتهاة واحدة، ولن يستقبلها في أحلامه أبداً حتى لو جاءت رغماً عنه سيربها فقط لوجه الله تعالى، لكنها ساعة الموت لا تتبدل ولا تتغير ليسلم الروح لخالقها والمفاتيح لأخيه الأعور. مات وترك ليلى تبكيه وتعلن يتمها الأبدى وترتدي الأسود وترافق الحزن الذي سلبها رغبة الحياة بألوانها المبهجة.

تكفنت سهير بحسرتها على رفيق العمر وكل ما لها في الحياة،
اذشغلت حتى عن ليلي وتركتها للوحدة تنخر روحها، فما أطول
ليلها وأقل حركتها؛ ليلي التي كانت تُشعل البيت بالضجة والمرح
أصبحت مستكينة تشعر بعدم جدوى الحياة التي تسلبنا من
نحب، ضحكت لها للحظات، ثمَّ تركتها تثرى اغتيال سعادتها..
أعطتها كل شيء فجأة، ثمَّ أخذته منها بغتة.. ضاق بها البيت
والشارع والمدرسة.. حتى صدر أمها ضاق بها ولم تعد تحكي لها عن
يومها وحكايات بنات مدرسة التجارة الثانوية التي لا تنتهي،
انزوت كل واحدة منهما على انكسارها ووجعها.

وهذا العمّ الذي يحمل شيء من ملامح أبيها يتلصص عليها كلما
مرّ ليعطي سهير إيراد القهوة، نضجت ليلي وبرز جمالها وصارت
تتعلق بها العيون في طريق الذهاب والعودة لكنها منشغلة بجزئها



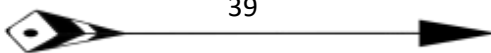
ولا تبصر من حولها، وحين غازلها أحد شباب الحي تصدى له ربيع
ولقنه درساً لا يُنسى هو أو غيره، يومها ذهب إلى سهير وطلب
منها عدم خروج ليلي إلا بإذنه وسيتكفل هو بجميع طلباتهم،
لكن ليلي لم تفهم سر ما طلبه إلا حين تحرش بها صاحب دكان
البقالة الذي كان صديقاً لأبيها وهي تشتري بعض حاجاتها
الشخصية دفعته بيدها وسبته وأسرعت إلى البيت تحكي لأُمها ما
حدث:

"كان حامينا ومضلل علينا وباعد عنا طمع الناس" قالتها سهير
بألم وقالت: "لن تذهبي إلى أي مكان سوى مدرستك".

حتى هذه اللحظة لم تكن تعلم أن وجود رجل في البيت يعني
الكرامة، وأن غيابه امتهان لا يمنعه سوى حبس نفسها داخل
جدرانها، فسلمت هي وأُمها أمرهما إلى ربيع، صار هو الذي يقضي
طلبات البيت كلها، واعتاد الذهاب اليومي إلى بيت أخيه سواء في
حضور سهير أو غيابها حتى اعتادت ليلي وجوده ولطيفة قلبها

اعتبرته الأب البديل، وسمحت له أن يضع يده على كتفها أو شعرها.. ولعلها كانت بلهاء لهذه الدرجة حين طبع قبلة على خدها وحين حاولت الابتعاد ضغط على يدها وهو يقول: "لا تخافي أنت عرضي وأنا رجل صعيدي لا أفرط في شرفي". لكنه تمادى ومسد ظهرها برقة مبالغ فيها وفي مرة أخرى لم تقاوم وهو يضمها بين ذراعيه.

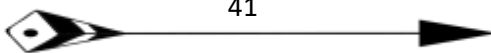
حين جاءت سهير على غفلة ورأته يحضنها في شهوة طردته شر طردة وأبرحت سهير ضرباً وركلاً وهي تبكي وتندب حظها العاثر، كانت ليل لقلة خبرتها تظن أن هذه اللمسات ليس لها علاقة بسوء الأخلاق إلا إذا حدثت من الغرباء، لكنها فهمت في تلك اللحظة أن وجودها في الحياة نتيجة لخطيئة كبرى؛ حدث هذا بعد أن سبتها سهير بنسبها للملجأ؛ شعرت أن الخطيئة قدر التصق بها حتى أنها بعد هذه الحادثة وبعد كلمات سهير لم تعد لديها رغبة في مقاومة تخرش ابن الجيران حين وضع يده على



شعرها وفي مرة أخرى مال عليها أثناء صعوده الدرج، هذه الأشياء المخجلة لم تكن تفكر بها من قبل لكن ما فعله ربيع وما باحت به سهير جعلها تشغل مساحة من عقلها وتعتاد عليها رغم قبحها ورغم تحذير سهير المستمر "البنت التي تفرط في شرفها لا تصلح للزواج وتظل ساقطة طوال عمرها".

ولكي يطمئن قلبها على ليلى سعت في زواج ربيع من جارة لهم أرملة فقيرة... لكن ما تفعله ليلى تفعله بعيداً عن عينيها فهي لا تقاوم إذا لمسها أحد في المواصلات وعندما وقعت في الحب للمرة الأولى لم تحصن نفسها من الخطيئة، وفارسها الأول لم يكن سوى سائق سيارة أجرة عرفته في طريقها إلى المدرسة.. وعندما طلبت منه الزواج اختفى ولم يقف في محطتها مرة أخرى، كانت هذه هي السنة التي أنهت فيها دراستها وحصلت على دبلوم تجارة لا يؤهلها للعمل في وظيفة حكومية كما كانت تظن، فرحت سهير يوم نجاحها ووزعت العصائر المثلجة على أهل الحي كله.

وبدأت في تجهيزها وهي تدعو الله أن يرزقها بالزوج الصالح، ليلى الوحيدة التي تعرف أنه لن يأتي أي عريس بعد أن فضحها الحبيب السائق بين زملاء مهنته وتناقلت الألسنة سر ما كان بينهما. لكن ما حدث لم تكن تتوقعه أو يمر في مخيلتها؛ كانت في طريقها لحضور حفل زفاف صديقة لها وكانت في غاية الجمال والأناقة وبعد أن ركبت سيارة الأجرة وبعد محطة واحدة طلب السائق والكمسري من الركاب الترحل والبحث عن سيارة أخرى لوجود عطل في سيارتهم ولكي يضمن عدم إثارة المشاكل أعاد الكمسري إلى الركاب الأجرة المدفوعة مسبقاً، وعندما همت ليلى أن تترجل مثلهم طلب منها أن تنتظر لتأخذ أجزتها، ثم فوجئت به ينطلق بالسيارة بأقصى سرعة ولم يكن في السيارة سوى الكمسري والسائق وصديق لهما، وقبل أن تنطق وضع الكمسري على وجهها منديلاً به مخدر.. فاقت في شقة مجهولة وهم يتناوبون



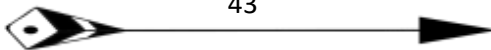
عليها.. حين خرج صوتها بالصراخ ضربها السائق وأخبرها بتفاصيل ما فعلته مع حبيبها السابق.

في تلك اللحظة العصيبة التي اعتصرها فيها الألم بشتى أنواعه مقتت نفسها ومقتت كل الرجال الذين يخبئون وجوه الذئاب خلف وجوههم.. وتمنت لو أنها لم تترك الملجأ ولم تذهب إلى أي مكان في العالم.

ومن بشاعة ما فعلوه توغل داخلها شعور الألم والإهانة.. شعرت أنها مجرد أداة أو لعبة متحركة في يد الرجال يتحكمون في مصيرها على حسب أهوائهم وأن هذا الذي سمته بالحب لم يكن سوى شهوة محرمة جاءت بها إلى الدنيا في خطيئة رجل وامرأة كانا من المفروض أن يكونا أباه وأمها لكن أمها تخلت عن خطيئتها بعد أن تخلى عنها شريك الجريمة، وربما ذهبت للزواج من آخر وتمارس حياتها كأبي امرأة عفيفة.

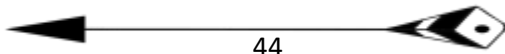
هي الآن في مرحلة اليقين بأن الحب هو الخطيئة الوحيدة على وجه الأرض فبه امتُهنت وبه اغتُصبت وبه تيّمت، الحب خطيئة ما كان يجب لمثلها أن تحب وأن تسلم نفسها ليد غير أمينة تسلمها لأيادٍ غير شريفة، لم تملك الصراخ ولم يعد لديها القدرة على الصراخ تركت جسدها ينتهكوه ولم يدعوها إلا حين نذفت فتركوها وهربوا.

مكثت مكانها لا تستطيع الحركة تركت نزيها ينسكب مع جروح قلبها، أغمضت عينيها راجية الموت أن يأتي ليخلصها من معاناتها، الليل يمضي ببطء كجبل ثقيل ذهبت معه في إغماء قصيرة كان عليها أن تغادر بعدها.. أن تعود إلى حياها.. إلى بيتها.. إلى سهير.. أن تغلق بابها ولا تخرج منه مرة أخرى إلا إلى القبر.. كان عليها أن تداري عريها وأن تداوي نزيها وأن تدرب نفسها على الوقوف وعلى السير بضع خطوات قبل أن تستقبل الشارع البارد.

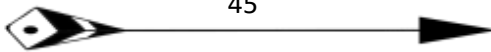


لا تدري كيف مشت كل تلك المسافة حتى وجدت نفسها في الشارع العمومي ومنه ركبت تاكسي إلى بيتها، وحين عادت استقبلتها سهير بالضرب والصفع والنواح والبكاء والسب.. تركتها ليل تفعل ما تشاء لم تتألم من يدها لم تقاوم ولم تهرب.. شعرت أن الضرب يطهرها من الخطيئة يطرد من روحها عذابات الساعات الماضية لكن سهير لم تتحمل ما رأته في البنت التي اتخذتها ابنة لها فسقطت أمامها.

الطريق إلى المستشفى مليء بالزحام والسيارات والسائقين الذين يحملون ملامح حبيبها المجرم، وهي تمسك بيد سهير وتقبلها بينما سيارة الإسعاف تشق طريقها بصعوبة.. وعندما وصلت المستشفى كانت سهير قد فارقت الحياة ولم ينفع معها أية إسعافات.



شارع زهدي لم يعد يصلح للسكن.. للبقاء.. للاستقرار، ماتت سهير التي اختارتها ابنة من دون الأطفال والتي صرفت عنها شبح الخوف والجوع، لم تكن تقصد أن تكون سبباً في ألم موتها فهي أيضاً ماتت بالاغتصاب.. ولم تكن تقصد أن تحب خسيماً وتسلم قلبها وجسدها لمن لا يصون سره، لكن بعد أن لاكت الألسنة سيرتها وشاعت فضيحتها في الحي كله لا يوجد سبب للبقاء يجب أن ترحل إلى حيث تكون منسية مجهولة الهوية مطموسة السيرة لا يعرف أحد حكايتها ولا يطاردها شؤم ماضيها. تسللت من منزلها مع أول شعاع للفجر حملت حقيبة ملابسها وأغلقت الباب على عفن أحلامها، سارت ولم تقف عند أي محطة تركت قدميها تسير بلا هواده وبلا هدف حتى ابتعدت بما يكفي عن الحي وأنهكها التعب؛ فجلست في مطعم شعبي صغير تتناول



شيئاً من الطعام تستقوي به على السير، وحين همت بالانصراف
وقفت أمام الباب وسألت صاحب المطعم عن مكان للسكن
فأخبرها عن عنوان سكن للمغتربات، وصف لها المكان فتوجهت
على الفور من لحظتها إليه، طرقت الباب بوجل، فتحت لها الست
جميلة صاحبة السكن وسألتها عن مرادها قالت:

-أريد غرفة للسكن.

-مشركة أم خاصة؟

تذكرت الجنيهات القليلة في حقيبتها وقالت:

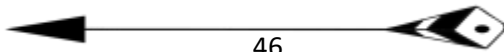
-مشركة مؤقتاً.

-عارفة القوانين.

-أية قوانين؟

-قوانين السكن هنا... ممنوع السجائر والمخدرات ممنوع الرجال.

رغم كونها لم تدخن في حياتها ورغم كونها كرهت الرجال هزت
رأسها باستسلام:





-تمام.

-الدفء مقدماً.

أخرجت كل ما في حقيبتها وأعطته لها، استدارت الست جميلة
وقالت: "تبعيني" صعدت معها إلى الدور الثالث، طرقت باب
إحدى الغرف ففتحت فتاة بملابس النوم الشفافة.

-جارتك الجديدة قالتها الست جميلة، ثم استدارت عائدة إلى
الدور الأرضي وهي تردد:

-استر علينا يارب.. استريا ستار.

-أهلاً.. قالتها الفتاة بفتور، وأضافت اسمي ميار والشهرة ميمي.

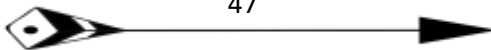
-ليلي والشهرة ليلي.

-نورت حجرتي.

-شكراً.

-هل تعملين؟

-أبحث عن عمل.

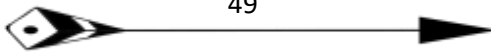


- ما مؤهلاتك؟
- دبلوم تجارة.
- لا أقصد الشهادات أقصد هل لديك خبرة بحرفة معينة أو تملكين موهبة كالتمثيل أو الرقص أو العزف على آلة موسيقية أو الغناء.
- نعم أنا أغني وأحب الغناء.
- جميل جداً يحتاجون في فرقتي إلى مطربة.
- وهل أنت....؟
- راقصة.
- آه هل كل من يسكن هنا يعمل في هذا المجال.
- لا يا أختي تصدقي معنا هنا طبيبة ومهندسة وممرضة نحن مكسورات الجناح جمعنا القدر والظروف المتشابهة وبيننا ود ومحبة ونحترم بعضنا بصرف النظر عن مهنة أي واحدة فينا وبالتأكيد لك حكاية مثلنا.

-بالتأكيد لكن دعيني أستريح أولاً وأنسى ما جئت منه وفيما بعد سأحكي لك كل شيء.

ألقت ليلي نظرة على الحجرة وعلى الفراش بالطبع لا يشبه فراشها ولا حجرتها لكنه مكان سيئويها كما آواها الملجأ من قبل، وربما تخرج منه إلى مكان أفضل كما خرجت من الملجأ إلى بيت زهدي، تركتها ميمي معذرة بميعاد العمل ومكثت ليلي وحدها تفرغ حقيبتها وتنظم أغراضها، ليس حقيبتها فقط بل تفرغ عقلها من كل ما حدث كي لا تفقده وتركته يحدثها بما يجعلها تستكين:

نحن لا ندري حكمة الله في اختيار أقدارنا فلماذا هذا بالتحديد يولد جاهل أو متعلم أو وزير أو خفير أو ابن عز أو مجهول النسب؟ لماذا هذه جميلة أو قبيحة أو فاتنة؟ ولماذا هذا الزواج مناسب وسعيد وذلك مصيبة من مصائب الزمن؟



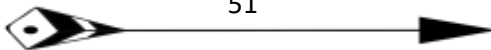
ربما يأتي علينا وقت ونعترض على قسوة الأقدار لكن مع الوقت نعرف إننا لا نصلح إلا أن نكون هكذا فلربما لو كان الفقير غنياً لأفسد في الأرض.. ولو كان الجاهل عالماً لضر الناس بعلمه؛ والله الذي خلق الأرض حفظها من الضياع والهلاك بأيدي خلقه. كلها أمور تدخل في علم الله ولو علمنا الغيب لاخترنا الواقع، لكن في علمنا أن الله عندما خلق آدم من طين نفخ فيه من روحه، فهو يجمع ما بين المادة والروح في تناغم انسيابي، فبقدر ما يميل الإنسان إلى ملء تجويف بطنه بالطعام والشراب والشهوة، بقدر ما يميل إلى الصفاء والنقاء والخير والعطاء.

قال زهدي في يوم من الأيام الناس معادن فمنهم الغالي كالذهب ومنهم الرخيص كالحديد، وتُختبر المعادن بالشدة وهكذا تظهر حقيقة الناس في الأزمت والشدائد.

وقالت سهير: البنت كالورقة البيضاء إن خط فيها الحبر لا تصلح للاستعمال مرة أخرى.. كانت تقصد أن لكل ورقة قلم واحد لكنها

لم تتعامل مع الدفاتر والكراسات، فلو رأيت كل هذا الكمّ؛ لعرفت أن كل ورقة بها سطور، وكل سطر صالح للكتابة حتى ولو بأقلام مختلفة.

أنت بنت الخطيئة ولم تستطعي منعها عنك، وإبراهيم مات وسهير أيضاً ماتت ومات قلبك معهما، فلن تحبي غيرهما، أما هؤلاء الذين انتهكوا حرمة جسدك ومن قبلهم صديقهم فهم كالذباب لا يستحقون منك سوى أن تعفي نظرك عنهم، انتقامك الحقيقي هو أن تنجحي وأن تحققي ذاتك، أن يُشار عليك ويُقال هذه هي ليلي حينها لن يبحث أحد عن الأصل والفصل ولن يفتش في ماضٍ عقيمٍ طويت صفحاته ومحا الغبار حروفه.



6

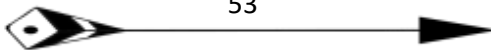
خطت خطواتها الأولى في المكان الذي رشحته لها زميلاتها في
 الغرفة للعمل به بوجل كأول اختبار لها في الحياة لكن الطريقة
 التي استقبلوها بها جعل الأمر يقترب من العادية، فقد اكتفوا
 بإعلامها بمواعيد العمل وقيمة الأجر ولم يهتموا حتى باختبار
 صوتها، كل ما يحتاجونه مطربة تدندن على إيقاع موسيقى صاحبة،
 وفي ليلتها الأولى غنت وغنت لم يكن الغناء صعباً عليها فهو
 عالمها الوردي الذي عاشت فيه سنوات الطفولة.

العيون تلاحقها بإعجاب والرؤوس تهتز مع نغم الكلمات يقاطعها
 التصفيق من حين لآخر، وفي آخر الليل حصلت على أجر معقول
 أمسكت به بسعادة كأنها تمسك بكنوز سليمان؛ لأول مرة في
 حياتها تحصل على أجر من الغناء أو العمل بشكل عام كابتسامة
 عابرة في عالمها الحزين، عادت بصحبة ميمي في طريق ستعاد على

قطعة وحدها كل ليلة لكن هذه هي المرة الوحيدة التي ستحيي فيها عن ذكرياتها السوداء وتاريخها المومع، لأن ميمي نصحتها أن تغلق كل صفحات الماضي وأن تستقبل القادم بصدر رحب.

اعتادت على الغناء واعتادوا على صوتها الشجي واعتادت على نظرات الإعجاب وكلمات المدح والثناء والغزل كلها أشياء تجعلها تنتشي لأقل من ثانية لكن لا ترضيها ولا تقبلها والعامل لا يقع في نفس الفخ مرتين وقديماً قالوا لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين، رغم مساحات الفراغ العميقة داخلها إلا أنها لن تسمح لنفسها أن يشغلها أحد أي أحد.

نجاحها هو حلمها الأول وشهرتها هي ارتباطها الأخير بالحياة وطموحها لا يشبعه تلك الفرقة المتواضعة، فهي تبغي ما هو أكبر من ذلك.. تريد أن تكون مطربة من الدرجة الأولى وما المانع أن تكون سيدة الغناء العربي في عصرها كما كانت السيدة أم كلثوم



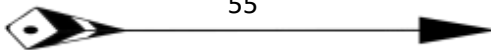
وما المانع أن تشارك في الحفلات الكبرى التي يحضرها الصفوة
وعليّة القوم.

أي نجاح يبدأ بحلم، ثمّ بالعزيمة والإصرار يتحول الحلم إلى
حقيقة، وقد جاءتها فرصتها الأولى حين عرض عليها أحد رجال
الأعمال أن تغني في حفل زفاف نجله وكانت من الذكاء والفتنة ما
جعلها تتسلق هذه الفرصة فحرصت على أن تظهر بمظهر لائق
حتى لو كلفها كل ما تملك؛ اقتنت أفضل فستان سهرة وعطراً
باهظ الثمن وإكسسوارات مناسبة.

وكان لها ما أرادت وتمنت حدوثه منذ ليلتها الأولى فقد أذيع
الحفل على صفحات التواصل الاجتماعي وتناقلت الألسنة اسمها
حتى حصلت على ما خطت له وتوالى الطلب عليها لإحياء
حفلات الزفاف وأعياد الميلاد جنت منها مبلغاً لا يُستهان به،
استطاعت من خلاله شراء شقة في منطقة راقية.

أما فرصتها الحقيقية، فقد جاءت على طبق من ذهب، حين عرض عليها مخرج مغمور مشاركتها في فيديو كليب مختلف ومتميز، وعرض عليها مجموعة أفكار اختارت منها فكرة واحدة، وأجادت الأداء بشكل متقن مما جعل الفيديو ينجح ويحقق أعلى نسبة مشاهدات، دخلت بعدها عالم الشهرة وتألقت حين استضافوها في برنامج شهير على الفضائيات المصرية وظهرت بخفة دم ودماثة أوقعت قلوب المعجبين.

وحدث ما أرادته وحلمت به، وهو أن تشارك في الحفلات الكبرى والمناسبات الوطنية التي تُقام في دار الأوبرا المصرية. مجرد دخولها دار الأوبرا مع أسماء لامعة في عالم الفن كان حلمًا مستحيلًا التحقق بالنسبة لها لكنه حدث، ولم يكن من خطتها أن تلتقي بمدحت بك، أشهر رجل أعمال في مصر، وذلك حين دعاها لإحياء حفل عيد ميلاده في فيلته الخاصة على شاطئ البحر.



في البدء لم يلفت انتباهها في شيء؛ فهو مثل كل الرجال الذين التقت بهم في حياتها يرشقونها بنظرات إعجاب لا تخلو من اشتهاء مجرد نظرات يعود بعدها الرجل منهم إلى بيته وزوجته منتشياً للحظات قد لا تتعدى مدة ارتشاف فنجان من القهوة بعد وجبة غداء دسمة.

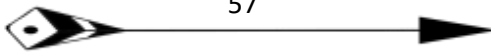
حين دعاها للجلوس على مائدته في آخر الحفل ظنت أنهما سيتبادلان عبارات المجاملة، ثمَّ يذهب كل منهما في طريقه لكنه فعل أمراً مختلفاً طلب منها موعداً للقاء خاص في إحدى الأماكن التي يتردد عليها، بعد تفكير قصير وافقت على أمل أن يستمر العمل بينهما في المستقبل أو يكون وسيط عمل بينها وبين أصدقائه ومعارفه.

ذهبت على غير العادة دون مبالغة في الأناقة والتزيين، وكان المكان فخماً يفوق كل تصوراتها عن تلك الأمكنة، أو بمعنى آخر هي لم ترق إلى مستوى تلك الأماكن، تخطو بدهشة الانبهار وفي

مخيلتها صورة قديمة لجدران باهتة تُسمى ملجأ الأيتام.. وفي عقلها عشرات الأسئلة عن سبب اللقاء في مكان كهذا. استقبلها بحفاوة فجلست أمامه تنظر في بريق عينيه وتحاول أن تبعد عن ذهنها الاحتمال الأخير لهذه الحفاوة، قال بعد برهة من الصمت وتبادل النظرات:

-أنت موهبة متفردة تجمعين ما بين عذوبة الصوت وجمال الشكل ورقة الروح وأناقة المظهر.

اعتادت على سماع عبارات كهذه وعلى نظرات تشبه الاشتهاء لكن تلك العيون التي تخفي الكثير من الأسرار وتبوح بالكثير من المعاني وتلك الأماكن التي بالكاد تسمع عن وجودها من بعض الزميلات، بالتأكيد يوجد خلفها احتمال آخر غير الاتفاق على إحياء حفل من الحفلات، لكن أياً كان الثمن فهي لن تضحي به، ولا تريد خسارته أو التفريط في رجل بقدره، قالت بعد برهة من الصمت والتفكير:



-أشكرك على هذه المجاملة الرقيقة.

-ليست مجاملة بل حقيقة ساطعة الوضوح.. لعلك تتساءلين عن سبب هذا اللقاء المفاجئ، وسأوفر عليك الكثير من الأسئلة.. بصراحة أنا معجب بك وأتمنى أن يكون بيننا ما هو أكثر من العمل.

أطرت رأسها في الأرض وهي تجاهد في طرد ذكريات بعيدة لثلاثة يتناوبون عليها كحيوانات مفترسة، وسهير تسقط أمامها حين تفهم من النظرة الأولى ما حدث لها، لكنها لن تستسلم مرة أخرى رفعت رأسها ونظرت في عينيه بتحدٍ وقالت:

-لا أفهمك!

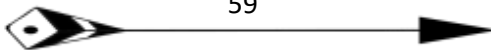
-سأختصر الكثير من الكلام الذي لا طائل منه، بصراحة أنا ميسور الحال لدي العديد من الشركات وحساب بنكي ضخم كما لدي زوجة وأولاد لكن هذا لا يمنع من الاستمتاع بالحياة كما

شرع الله، فأنا رجل مستقيم ليس لي في السكك المتلوية لذلك أريدك زوجة ثانية.

ما سمعته فاق كل تصوراتها وتوقعاتها.. فقد أرادت أن تصعد سلم النجاح لتعيش حياة كريمة.. وها هي الحياة تبتسم لها في مصادفة عجيبة كتلك اللحظة التي اختارتها فيها سهير دوناً عن كل الأطفال الذين كانوا معها في الملجأ.. لكنها تعلم أن قلوب هؤلاء الرجال محفوفة بالأهواء.. فهي بالنسبة له مجرد جوهرة ثمينة يسعى إلى اقتنائها ربما لوقت قصير قبل أن يعاود البحث عن أخرى أثنى منها، لذلك يجب ألا تكون سهلة المنال فبقدر صعوبة حصوله عليها بقدر بقائها معه لمدة أطول، قالت بدلال اكتسبته من صداقة ميمي زميلة الغرفة المشتركة:

-لقد فاجأتني لم يكن في توقعاتي هذا الطلب.

-خذي وقتك في التفكير.



-وماذا عن عملي.

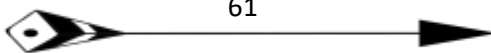
-أنت فنانة موهوبة ولن أعترض طريقك، بل على العكس أريدك أن تفكري في احتراف الغناء بشكل أفضل، وأن يكون طموحك أكبر من إحياء حفلات الزواج وأعياد الميلاد، وأرجو أن تمنحيني الفرصة لأساعدك في إيجاد مشروع حياتك.

-وهذا ما أريده أيضاً لكن لدي أولويات يجب ترتيبها وسأرد عليك خلال أيام.

نظر إليها نظرة طويلة وطلب منها أن تغني له، فظنت أن الأغنية المناسبة للموقف أغنية أم كلثوم "أنت عمري"، فازداد توهج عينيه وانحنى على يدها يقبلها.

السعادة لا تسع قلبها عندما عادت وأغلقت باب حجرتها خلفها، ألقت نفسها على الفراش واستعادت كلماته.. نظراته.. القبلة التي طبعها على يدها؛ هي التي بلا أصل أو فصل تتزوج من ابن أكبر

عائلة في مصر.. هي التي تربت على اليتيم والحرمان ولاحقها عار
الخطيئة وهذا الذي يتربع على عرش الاقتصاد والبنكنوت.
رغم فرط سعادتها تعرف أنها سعادة مؤقتة كما أنه طلب أن
يكون الزواج في السر لكن كل هذا لا يمنع أن تترك بعض
السطور المضيئة تعبر في دفتر حياتها المظلمة، قررت أن تنتظر
بضعة أيام قبل أن ترد عليه بالموافقة الحتمية.



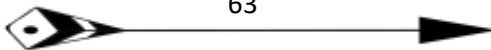
7

حجز تذكرة طيران إلى سويسرا لقضاء شهر العسل وإنجاز بعض الأعمال، لم يكن في مخيلتها أن الحياة بهذه الروعة وأن منها بهذه الفخامة والكلف، ولا خبرت أن العلاقة بين الرجل والمرأة بهذا الرقي فكل ما مضى من حياتها كان محض شهوات حيوانية من بشرٍ عديمي الإنسانية، الآن هي فنانة زوجة أميرة لهذا الذي يعلمها معنى الكرامة.

تذوقت طعم السعادة لأول مرة كما أعطتها الحياة ببذخ هذه المرة وحين انتهى شهر العسل وعادت معه كانت تشعر أنها إنسانة أخرى غير تلك التي ذهبت؛ إنسانة لا تخاف ولا تجوع ولا تعرى كأنها في الجنة.. جنة الله على الأرض تتجسد في رجل من بني آدم لا ينتمي للجن ولا الملائكة، مجرد رجل ليس لأنه يملك المال والجاه فقط، بل لأنه يشعر بقيمة إنسانيته ويمنحها للآخرين.

مرت أيامها معه سعيدة وقصيرة امتنعت عن حضور الحفلات واستعدت لأغنياتها الثانية بعد نجاح الأولى لكنها فوجئت بغضبه ورفضه، كانت هذه هي صدمتها الأولى معه، لكن الزواج من رجل بقدره لم يكن هدفها الأول فهي تعرف أنها ليست أكثر من نزوة في مسيرته الطويلة وستنتهي قريباً بمجرد عثوره على أخرى يُعجب بها، أما ما سعت إليه هو النجاح والشهرة، والغناء هو سر سعادتها الأولى والأخيرة وقد تنفست من خلاله شذرات الحياة، ولن تستسلم ليد تريد وضعها في متحف للتحف الجميلة بجوار مثيلتها ممن سبقوها.

لذلك لم تصمت ناقشته وجادلته وعارضته حتى اختنق وتفوه بعبارته الأخيرة "افعلي ما شئت لكني غير راضٍ"، كانت آخر جملة سمعتها منه غادرت بعدها إلى الاستديو لتسجيل الأغنية قبل تصوير مشاهدتها الخارجية على قمة الجبل في اليوم التالي.

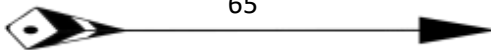


القسم الثاني

الحياة مرة أخرى

1

أنهكتها الذكريات ودخلت في غيبوبة أشبه بغيبوبة الموت أو لعلها ماتت فعلاً وصعدت روحها إلى السماء، لكنها سقطت في بقعة ضوء ولم تشعر بالأيدي التي تحملها وتضعها في الهليكوبتر ولم تعرف كيف وصلت إلى المستشفى، عندما فاقت بعد الإسعافات اللازمة من نقل الدم وتوصيل المحاليل وإجراء جراحة عاجلة في الساق اليمنى، لم تستوعب أنها لازالت على قيد الحياة، وأن الله منحها فرصة للنجاة ربما تكون فرصتها الأخيرة أو بدايتها الجديدة... لكن المؤكد أنها مهما تعيش بعد ذلك فإنها لن تنسى شبح الموت الذي التقت به فوق الجبل، ولن تنسى منظر الطائرة التي تحطمت بمن فيها... خيط رفيع يربط ما بين السعادة والتعاسة، لحظة بسيطة هي ما تفصل بين الموت والحياة.



عندما جاءت الطبيبة لمتابعة الحالة وجدتها تبكي فضغطت على كفها لتواسيها:

-لقد كتب الله لك عمراً جديداً يجب أن تشكره لا أن تبكي.

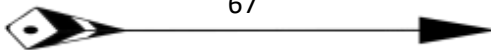
-لَمْ أنا دوناً عن الآخرين لماذا أستحق حياة أخرى؟

-سبحان الله هذه أقدار الله التي تسير بعلمه، وربما كانت رسالة لك لأنه يريدك أن تعودى إليه أو تتويى عن ذنب أو لعلها رفع درجات وعلو منزلة في الجنة.

التفتت إلى الطبيبة، فوجدت الحجاب يغطي كل بدنها ولا يظهر غير وجهها وكفيها.. وجه هادئ باسم بلا مساحيق وكف ناعمة حنونة، انصرفت الطبيبة إلى عملها، وأغلقت ليلي عينيها وهي تحاول تذكر علاقتها بالله، فعادت إلى صفها الثالث الابتدائي حيث كانت متعبة من الأرق الذي يصيبها في ليل الملجأ فغلبها النوم في حصة الدين وحين انتبهت المعلمة إلى نومها ضربتها بعصا غليظة على ظهرها وهي تسبها وتتهمها بعدم انتمائها إلى الدين،

بكت يومها وقالت لتدافع عن نفسها شبهة الكفر "والله أنا مسلمة وأحب الدين"، لكن نظرات البنات إليها جعلتها تشعر بالخجل وبمدى الجرم الذي ارتكبته فجلست ذاهلة عمن حولها، صارت بعدها حصص الدين من أثقل الحصص على قلبها، وأصبحت تتعمد الغياب في تلك الأيام.

وعندما علمتها أمها بالتبني الصلاة وطلبت منها الانتظام في أدائها لم تكن تؤديها كما ينبغي بتركيز وخشوع، ثم انقطعت تدريجياً عنها ولم يحاسبها أحد على هذا الانقطاع، ولم تعرف من الدين سوى صيام شهر رمضان، فتظل طوال النهار نائمة وتستيقظ قبل المغرب بلحظات قليلة لتأكل ما لذ وطاب وما تطبخه سهير، إنها لا تذكر حتى إنها تصدقت في عمرها كله على فقير أو مسكين ولو لمرة واحدة، ورغم ذلك الله يرسل إليها رسالة، ينجيها من الموت وحدها كما منحها من قبل أم وأب دوناً



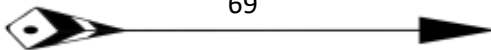
عن أطفال الملجأ كلهم، وكما منحها زوجاً ثرياً حنوناً عرفت معه مذاق الحياة الحلوة.

الله يعطيها كل هذه النعم وهي لا تشعر بوجوده ولا تعبده كما ينبغي... ظلت حتى الصباح تفكر في الحكمة من نجاتها وفي الطريقة التي يجب أن تشكر بها الله، وحين جاءت الطبيبة في الصباح نفس الطبيبة ذات الوجه الباسم قالت لها:
-حدثيني عن الله.

لم تندهش الطبيبة من السؤال اتسعت ابتسامتها وجلست بجوارها:

-هو رحمن رحيم أرحم على الإنسان من أم بولدها، هو عادل لا يرضى بظلم الناس.. رزاق وزع الأرزاق بالتساوي فمن الناس من يملك العافية ومنهم من يملك المال أو الجاه أو الأولاد أو الأخلاق.. هو جبار يجبر القلوب الكسيرة.. ودود يتودد إلى عباده ليتوبوا إليه ويرجعوا عن ذنوبهم.

انسلت الدموع من عين ليلى وهي تتذكر كل ما فعلته في حياتها
من أخطاء واختلط صوتها بالبكاء:
-وهل يقبلني بعد كل هذا الهجر والبعد عنه.
-ستكون مكانتك أفضل من ناسك أو عابد؛ لأنك تائبة والله
يجب التواابين ويجب المتطهرين.



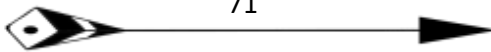
2

خرجت من المستشفى بقلب آخر وهيئة أخرى غير تلك التي عاشت بها، هي الآن تحيا لأن الله منحها فرصة للحياة.. تابت لأن الله منحها فرصة للتوبة.. غسلت قلبها من أطماع الدنيا وشهواتها المحرمة لأنها الوحيدة التي نجت.

لم يعكر صفوها سوى شيء واحد، أن الأسبوع الذي قضته في المستشفى لم ترَ زوجها ولم يكلف نفسه بزيارة خاطفة، واكتفى بمجرد سؤال عابر في الهاتف متحججاً بانشغاله في زحمة الأعمال.. حدثها قلبها أنه عثر على أخرى بعد أن تشبع منها كطفل مدلل يلقي بلعبته القديمة كي يحصل على أخرى جديدة، وانتظرت ورقة الطلاق التي لم تتأخر سوى بضعة أيام بعد خروجها من المستشفى.

لم تحزن ولم تغضب لنهاية متوقعة ومحسومة، فمنذ لقائها الأول معه تعرف أن ما بينهما كان مجرد رغبة، متعة، علاقة عابرة بشكل شرعي، كان أي مسمى غير أنه زواج بمفهومه الحقيقي، هي الآن لا يشغلها رجل ولا نجاح ولا شهرة؛ فقد جاءت للتو من رحلة الموت المحقق رأتة في يومين يوم من اليقظة ويوم من الغيبوبة هناك فوق الجبل وسط الجليد وعصف الريح، لقد منحها الله حياة أخرى رغم أنها لم تطلب ذلك ولم تسع إليه لكنها نجت لسبب لا تعلمه وإن كانت تستشعر داخلها عظمة هذا السبب.

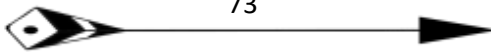
أصبح كل همها أن تعرف المزيد عن الله وعن هذا الدين الذي ظلت غريبة عنه طوال الخمس وعشرين عاماً المستهلكة من عمرها، ربما أدت بعض طقوسه - تحت تأثير ضغط سهير وإلحاحها عليها - لكنها لم تتعد كونها قشور رقيقة من ثمرة لم تذوقها، وقد حان الوقت لتعيشه وتتنفسه، تشعر به ينساب داخلها كطيف شفاف كروح بريئة كماءٍ نقيٍّ صافٍ.



أول ما أرادته بعد الشفاء من آثار الحادث هو أن تذهب إلى المسجد أي مسجد في أي مكان يكفي أن يكون فيه مصلى للنساء، وعندما همت بالذهاب بحثت في ملابسها عن ثوب يصلح للمسجد ولم تجد فخرانة ملابسها تحوي أغلى ثياب وأرقى ثياب وأحدث ثياب، لكنها جميعاً لا تصلح سوى للغناء أو السهرات الترفيهية لا يوجد بينهم ما يغطي كل جسدها.. فانصرفت عنها وأخذت تبحث في ملابسها القديمة حتى عثرت على فستان طويل كان هدية سهير لها في عيد ميلادها الأخير معها واحتفظت به للذكرى.. نفضت عنه الغبار وهي تستنشق رائحة قديمة تمتزج بريح الفقد، حشرت نفسها فيه بعد أن امتلأ الجسد قليلاً وخرجت تبحث عن مسجد به مصلى للنساء حتى وجدته في شارع قريب من سكنها صادف ذلك وقت آذان المغرب فدلقت وسط النساء لأداء فريضة الصلاة.

في اللحظة التي وقفت فيها في الصف الأول شعرت بقشعريرة تسري في بدننا ككهرباء تمر من أطراف أصابع القدم وحتى شعر رأسها.. لحظة استشعرت فيها عظمة وقوفها بين يدي الله.. الله الذي أرسل لها سهير لتمنحها الأمومة ووهبها الصوت الجميل ليمنحها الشهرة، والشكل الجميل ليمنحها مدحت بك فيتزوجها ويمنحها السعادة لبعض الوقت.. الله الذي أنقذها بمعجزة وأرسل لها تلك الطيبة لتدعوها إليه ولتعرف منها أن باب الله مفتوح في أي وقت لكل من يريد التوبة.

انهمرت دموعها أثناء تلاوة الإمام لبعض الآيات الكريمة ما أجمل صوته وأعذبه! وما أجمل آيات الله! نسمعها بقلوبنا قبل أذننا.. تحدثنا الآيات كأنها نزلت خصيصاً لكل واحد منا على حدة؛ فالعاصي تخبره أن الله يقبل التوبة والمحتاج تخبره أن الله هو الرزاق الكريم يكفي أن نرفع كفوفنا ونقول يارب فتأتي الأرزاق تبعاً وتباعاً.



انتهت الصلاة ولم تكف دموعها فاقتربت منها إحدى الفتيات
تبدو من مظهرها التزامها الشديد بتعاليم الدين ربتت على كتفها
وسألتها بود:

- ما بك يا أختي؟

لم تجد ما ترد به، فأضافت الفتاة بعدما لمحت ارتباكها:

- نحن هنا أخوة كلنا سواسية ونساعد بعضنا بقدر ما نستطيع.

خرج صوتها مرتعشاً ممزوجاً بالبكاء:

- لا أحد يستطيع مساعدتي غيره جئت أطلب التوبة.

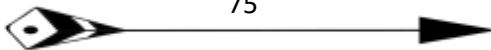
- باب التوبة مفتوح والله يفرح بتوبة العباد.

- الحمد لله على كثير نعمه.

أخرجت البنت بعض الكتيبات الدينية وأعطتها لها ولم تتركها إلا
بعد أن هدأت وكفت عن البكاء واتفقت معها على اللقاء في
المسجد بعد صلاة المغرب من كل يوم لتحفظ على يديها آيات
القرآن الكريم.

3

عندما نرعت ورقة النتيجة ووقعت عينها على التاريخ المكتوب جفلت للحظات حتى استعادت الذكرى؛ اليوم مختلف عن كل أيام حياتها إنه عيد ميلادها السادس والعشرين ولأول مرة ستكون وحيدة في هذا اليوم.. كانت من قبل أمها سهير تعتبره مناسبة فريدة رغم كونها لا تعرف إن كان هو يوم ميلادها الحقيقي أم تاريخ ملفق لأوراق رسمية يجب أن تُملأ، وبيانات يجب أن تُسجل، لكن في النهاية فإن يوم الخامس عشر من شهر أغسطس هو يوم ميلادها رضت أم أبت، هو أيضاً تاريخ مميز في حياة المصريين لأنه يوم وفاء النيل، وقديماً كانوا يقدمون لأجله عروس النيل كما أنه يوم شديد الحرارة والرطوبة.. لكن سهير صنعت منه يوم بهجة، وبعد موتها اعتادت الاحتفال به مع زملاء



فرقتها وكان آخر احتفال لها مع مدحت بك في العام الماضي وقد
أهداها سيارة فارهة.

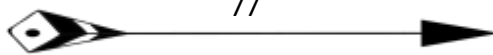
لكنها اليوم وحدها لا سهير ولا فرقة ولا مدحت، هي في محطة ما
من عمرها منطقة مجهولة موقعها صفر على الخريطة لا تعرف إلى
أين يقودها الطريق هل تواصل طريق الفن وتستكمل مسيرة
الشهرة؟ هل تبحث عن رجل آخر غير مدحت تتزوجه وتعيش
في كنفه؟ أم تتخلى عن كل هذا وتعمل في عمل بسيط بقدر ما
يكفل لها احتياجاتها، وتستكين باقي عمرها.. تستكين بعيداً عن
كل شيء.. بعيداً عن الأسرة التي تفتقدها والحبيب الذي هجرها
في محاولاتها الفاشلة وعن حلم النجاح والشهرة بعد أن كانت
نكرة ومجهولة في عالم البشر...

هي لا تعرف ماذا تريد وماذا ستفعل، أينما سارت تلاحقها
العيون بنظرات الإعجاب ويطاردها الرجال بالغزل الصريح
والعفيف أحياناً، كانت فيما مضى أشياء كهذه تسعدها تُسعرها

بالنشوة بالرضى بالغرور وهي تتجاهل الجميع وتمنع بدلال، لكنها الآن تشعر بالخطر.. تشعر أن تلك العيون تسرق منها بقدر ما تسترق النظر إلى جسدها.. ربما سرق أحدهم نظرة عينيها وآخر نضارة بشرتها، أو امرأة غيور تسرق طريقة ابتسامتها أو يطلع أحدهم على أنفاسها وعدد نبضات قلبها.

ولأول مرة تشعر أنها عارية أمام هذه العيون.. وازداد الأمر سوءاً عندما مدّ أحدهم يده ووضعها على شعرها المنساب على ظهرها كحصان جامح.. هي ليست بضاعة معروضة لكل من هبّ ودبّ.. هي إنسانة قبل أن تكون أنثى روح قبل أن تكون جسد جوهر باطني قبل أن تكون شكل خارجي.

أشعلت شمعة وحيدة فوق التورته التي طلبتها لنفسها دليفرى وتركتها تحترق وتنزف آخر ما فيها قبل أن تأخذ قرارها الأخير بارتداء الحجاب، لكنها أيضاً خطوة صعبة ستحدد كل الخطوات التالية، فعلى سبيل المثال لن تستطيع الغناء أو الظهور في



الحفلات العامة والخاصة، ولن يتهافت الرجال عليها كما كانوا من قبل وربما لا تجد فرصة زواج باذخة كتلك الأولى، قرار صعب في حاجة إليه لتشعر باحترامها لذاتها لتغير نظرة الجميع فيها أما مسألة الرزق، فالرزاق هو الله وما جمعه من مال في حياتها السابقة يسمح لها بعمل مشروع صغير يكفل لها باقي الحياة.. قرار عسير لا بد منه.

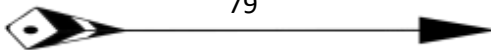
وبعد أن ذابت الشمعة وأظلم المكان، فجأة خرجت تبحث في محلات ملابس المحجبات عما يناسبها لتهادي نفسها في عيد ميلادها السادس والعشرين.

المسجد ينادي ضيوفه تشعر كل يوم أنها تسمع صوته:

- تعالي يا ليلي اقتربي يا ليلي.

فتلبي النداء وتسرع الخطى إلى صلاة المغرب وتجلس تنتظر صلاة العشاء لتبكي مع التلاوة الرائعة للشيخ حمدان، بعدها تجلس في حلقة الحاجة منى لتتعلم كل يوم معلومة جديدة، عن فضائل الصلاة والصيام والصدقة وعن أهمية الأخلاق الحميدة، ومنزلة صاحب الخلق وعن الأشياء الواجبة على المرأة فعلها لتدخل الجنة، وفي كل مرة تبكي في نهاية الدرس وهي تطلب من الحاجة منى أن تدعو لها بالثبات.. فتدعو ويدعو كل من بالمسجد.

صارت ابنة المسجد المدللة التائبة التي يفرح الجميع بوجودها بينهم ولا تترك حلقة أو درساً إلا وتحضره، حياتها المفرغة تمتلئ



من جديد وقلبها الخاوي صار عامراً بالإيمان وعقلها لا يكف عن ابتكار طرق جديدة للصدقات أو لإسعاد صديقاتها في المسجد بالهدايا البسيطة فلا زال لديها الكثير من المال الذي كسبته من الغناء ولن ينتهي بسهولة كما أنها تفكر بشكل جاد في عمل مشروع تجاري صغير كمصدر للرزق الحلال.

وبعد مدة قصيرة من معرفتها بالحاجة منى فوجئت بها تزورها في شقتها، بقدر فرحتها بها بقدر الدهشة التي أصابتها من الزيارة فبادرت الحاجة منى بالإفصاح عن سبب الزيارة:

- سأختصر كلاماً كثيراً لا طائل منه.. لقد فرحنا بوجودك بيننا ودعونا الله أن يثبت أقدامك في الطريق الصحيح، ولكي تستمري في هذا الطريق يجب الزواج من رجل صالح يعينك على ما عزمته عليه.

صمتت ولم تجد الرد المناسب، فلم تكن على استعداد لسماع أشياء كهذه؛ فهي للتو استعادت نفسها وتريد الاستمتاع بالحياة

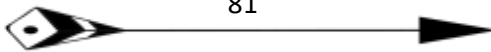
النظيفة التي لم تعشها من قبل، لكن مع إلحاح الحاجة منى على العريس الذي سيأخذ بيدها إلى الجنة وافقت على رؤيته فقط.. بعدها تحدد موقفها من مسألة الزواج.

ولم تكتم الحاجة منى خيراً وأحضرت العريس بعد يومين، كانت خجلى.. كانت خائفة كأنها ترى رجلاً لأول مرة والحقيقة إنها لأول مرة ترى رجلاً لا يتفحص جسدها ولا يتلصص على أنوثتها.. فقط نظر في الأرض وتلفظ بعدة كلمات ليعرفها بنفسه:

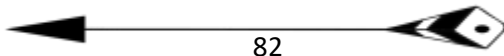
-محمد محمود تاجر ميسور الحال والحمد لله.. أبحث عن إنسانة مناسبة وقد رشحتك لي الحاجة منى، وذكرك بالخير وخذي وقتك في التفكير وأنا تحت أمرك في كل ما تريدين معرفته عني.

-لكنك لا تعرف عني ما يكفي لإتمام هذا الطلب.

-أعرف أن الإنسان يولد منذ لحظة التوبة وأعرف أنني سأكون مسؤولاً عنك منذ اليوم الأول الذي تصيرين فيه زوجتي، أما الماضي فقد ذهب لحال سبيله يكفي ألا تذكره أمامي.



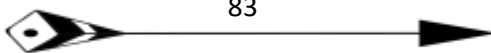
شعور جديد عليها شعور الاحترام والتقدير؛ أن يتعامل رجل مع شخصها لا جسدها.. أن يطلب الزواج للاستقرار وتكوين أسرة لا للمتعة والنزوة.. أن يمدح تدينها لا مفاتنها؛ فتغمرها فرحة مباغطة أدمعت لها عينيها ولم تجد مبرراً لتأخير الرد وتعطيل حياتها أكثر من ذلك، فأعطته إشارة القبول التي أسعدت الحاجة منى وأخذت تبتهل لهما بالدعاء بالتوفيق والصلاح.



5

كان عليها أن تغلق شقتها وأن تذهب معه إلى عشاها الجديد، بعد حفل صغير حضره بعض رفقاء المسجد، وكان عليها أن تمارس حياتها كربة منزل وزوجة مصرية أصيلة تنهض باكراً قبل زوجها لتعد له الفطور وتستقبله بابتسامة رضا، ليذهب هو إلى عمله وتقضي هي باقي يومها في قضاء طلبات البيت والتنظيف والترتيب والطبخ.

ومضى العام الأول في سعادة لم يعكر صفوها سوى تأخر الحمل لما تعرفه من لهفة زوجها على هذا الأمر، ومن أجل إرضائه بدأت تطرق أبواب الأطباء وتجرب الوصفات الشعبية وتتعاطى المنشطات والعقاقير المحفزة لحدوث الحمل، ولم ينته العام الثاني حتى حدث ما أرادت؛ الكلمات لا تصف بركان السعادة الذي تفجر داخلها عندما تسلمت تقرير تحليل الحمل لم تستطع تحمل



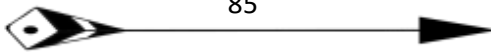
الفرحة وحدها ذهبت إلى زوجها في الشركة وأخبرته، لفرط سعادته منح العاملين مكافأة مالية واحتفل معها بالبشارة. بدأت تعاني من تعب الحمل الذي أثر على حركتها وعلى أدائها اليومي فلم تستطع حضور دروس المسجد أو الوقوف لفترات طويلة في المطبخ لكنها لا تنكر أنها تعيش أسعد أيامها وهي تراقب بطنها تكبر يوماً بعد يوم، وتتحسس حركة الجنين داخلها كأنه يداوي شروخ روحها وانكسارات قلبها حتى اكتمل تكوينه وجاء يوم الولادة؛ كان يوماً حافلاً بالأحداث ومميزاً، عانت الكثير من التعب نزفت توجعت تألمت ضاقت أنفاسها لتعب أصاب رئتيها من أثر حادث الطائرة والهواء البارد الذي تنفسته لمدة يومين في العراء فوق الجبل.. فوضعوها في العناية المركزة ليوم لبيلة غابت فيه عن الدنيا، وعندما فاقت في الصباح سألت عن وليدها بلهفة وخوف فجاؤوا به من غرفة الأطفال ضمته في صدرها واستكانت، شعرت أنها ولدت معه في هذه اللحظة.. هي



الآن أم لا مكان للعبث بعد اليوم لا مكان في قلبها سوى لهيثم
كما أراد أبوه أن يسميه.

خرجت من المستشفى وهي تططب على سعادتها كي لا تنفلت
منها، شغل هيثم وقتها وعقلها فكان بؤرة كل الاهتمامات، لعلها
أرادت أن تعوض سنوات الملجأ فيه بالعناية الفائقة والمشاعر
الفياضة فصار محور كل الاختيارات كنوع الأكل وألوان الملابس
وأماكن الترفيه... نشأ طفلاً ذكياً حنوناً عطوفاً يحبها كما تحبه،
يلعب معها كما تلعب معه، يخاف عليها كما تخاف عليه.

مرت ست سنوات كما الحلم الجميل ووصل هيثم إلى سن المدرسة
وبدأت تعاني الوحدة والفراغ في أوقات غيابه عنها، فتذكرت
جلسات المسجد ورفيقات المسجد فعادت إليه بشوق وحنين،
وتعرفت على رفيقات جدد واختاراتها من بينهن لتكون صديقة
لها إنها نهلة ابنة العشرين جمع بينهما ماضي اليتيم مع فارق أنها لم
تنشأ في الملجأ مثلها، بل عاشت في بيت عمها بعد وفاة والديها في

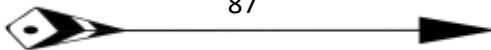


حادث، وأيضاً فهي متزوجة ولديها بنت وليلى تبحث عن أكثر من صديقة تبحث عن أخت أم رفيقة مخزن أسرار فزوجها منشغل طوال النهار في العمل، وهيثم يقضي يومه في المدرسة الخاصة وهي وحيدة بلا أم أو أب أو أخت أو أي قريب فهي مقطوعة من شجرة، كما تردد دائماً لنفسها، أحياناً تحدث نفسها كي تسمع صوتها وأحياناً تغني أو تبكي، لا تنكر أنها سعيدة وفي غاية السعادة وقد منحها الله من النعم الكثير والكثير لكن كما يجوع البدن ويبحث عن الشبع فالروح تجوع وتتوق للشبع.

نهلة على العكس منها ثرثارة تتحدث في أي شيء مع أي أحد لها علاقات كثيرة مرحة ودودة، فقر زوجها دفعها إلى العمل كبائعة في إحدى المولات التجارية، ناجحة في عملها تعرف كيف تكسب الزبائن وتجبرهم على العودة إليها.

دعتها ليلي لزيارتها في بيتها يوم عطلتها، فارق كبير ما بين شقتها
وشقة ليلي وما بين حياتها وحيات ليلي لكن بما لديها من لباقة
ومرح تتجاوز أي شيء فلا يشعر من يتعامل معها بأن ثمة ما
ينقصها، قضت معها يوماً جميلاً واستمتعت بما لذ وطاب من
الطعام، استمتعت ليلي بوقتها أكثر منها فقد وجدت أنس لوحشة
روحها.. صديقة نبتت في نفس التربة وربما عانت من نفس
الظروف.

وليلي لا تعرف أن نهلة رغم كل المرح والضحك الذي يبدو على
وجهها فإنها إنسانة تعسة ليس لماضي اليتيم ولا الحاضر الفقير،
ولكن لأنها تعاني جفاف المشاعر مع زوجها، تعرف أن الحب
ليس له علاقة بالفقر قد يكون الإنسان فقيراً لكنه غني
المشاعر، وقد يكون غنياً لكنه فقير المشاعر، عندما تزوجت من
حامد السباك كانت في حاجة إلى وطن إلى بئر عميقة من
الاحتواء، لكنها فوجئت بعد أيام العسل بجفائه معها فهو لا يعرف



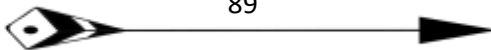
سوى لغة الجسد، وبمجرد أن يحصل على ما يريد يتجاهلها يعاملها على أنها مجرد خادمة أو أداة لإشباع كل احتياجاته، وبنصائح عديدة من بعض الجارات قررت ألا تستسلم وأن تشده لأرضها أن تملأ قلبه بمحبتها، ولم تنجح كل محاولاتها فهكذا الرجال لا يتبدلون ولا يتغيرون الرجل منهم يبني قناعاته، ثمّ يتمسك بها كأنها دليل رجولته لا يهم لديه من أين اكتسب تلك القناعات؛ من الشارع من الأصدقاء من خبرات سابقة أو موروثه، وقد يكون ابن ناس ويكتسبها من مجتمع المدرسة والمسجد ووسائل المعرفة الأخرى كالكتب والنت، ويختلف حظ المرأة ما بين هذا وذاك.

ليس الجفاء فقط ما تعانيه نهلة مع زوجها، بل تعاني أيضاً من خياناته الكثيرة، فهو لا يتورع عن مغازلة أية فتاة تقع عينه عليها ولو واتته الفرصة ليمد يده إلى إحداهن لا يتردد، ويقحم نفسه في حياة الأخرى بشكل يتناسب مع وضاعة أخلاقه،

وعمله كسباك يمنحه الفرصة لدخول البيوت والإطلاع على الأسرار ومعرفة من أين تُقضم التفاحة.

ومهما عاشت معه لن تنسى ذلك اليوم الذي اقتحم فيه زوج إحدى المجارات شقتهم وأبرحه ضرباً.. ضرب لدرجة الموت عرفت بعدها أن ثمة من وشى عليه وهمس في إذن الزوج ببضع كلمات عن علاقة مشبوهة في حياة زوجته.. بالطبع لم تكن المرة الأخيرة التي تحدث فيها مشاكل من هذا النوع، فقد خاض العديد من الشجارات في هذ المضمار كأنها حروبه الوحيدة في الحياة.

بعد معاناة نهلة لخمس سنوات مع عدم وجود ملاذ آمن لها غير بيت الزوجية وعدم وجود من تشتكي له غير الله تعلمت الصمت والسكوت عن كل ما لا يرضيها، وكل معاركها معه خاسرة تدفع ثمن الخسارة وحدها، وتذوقت معه الفقر بجميع حالاته فهو منشغل عن رزقه بما هو فيه ومنشغل عنها بالأخريات، وبعد أن

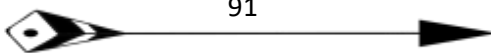


أنجبت بنتها الوحيدة قررت ألا تنجب مرة أخرى حتى لا تتحمل تبعات أرواح بريئة وحدها بالإضافة إلى مسؤولية نفقتهم، فهي تعرف أن الحياة مهما طالت معه فسيأتي اليوم الذي يخبرها فيه أنه تزوج بإحدى عشيقاته وسيطالبها بالرحيل من الشقة كي تفسح الطريق لغيرها، ولم تعتمد عليه أيضاً في مصاريف البيت فهو لا ينفق سوى على نفسه فقط، وإذا طالبت به بأي التزامات يبرحها ضرباً لذلك سعت خلف رزقها ورزق ابنتها ولم تصلح سوى بائعة في إحدى المولات التجارية، وماذا أمامها غير ذلك فهي لم تواتبها الفرصة لاستكمال تعليمها فمجرد وصولها للمرحلة الثانوية أراد عمها أن يتخفف من عبء وجودها في بيته وزوجها من تلك المصيبة التي حلت على رأسها.

لم يتبقَّ لديها ما تعيش لأجله سوى ابنتها وعملها، فعملها يتيح لها فرصة التعامل مع شخصيات كثيرة ورؤية وجوه مختلفة عن وجه زوجها وفهم الحياة التي لم تفهمها معه.

مرت بخبرة سريعة عرفت من خلالها أن الرجال مختلفون ومتنوعون، كما عرفت أن للخيانة مسميات كثيرة كالصداقة والإعجاب والحب الأعمى، وعرفت أن القناعة كنز لا يفنى، فلو استغنى كل إنسان بما يملك لما كانت هناك خيانات أو سرقات أو قتل.. لرضي كل واحد بما في يديه وعاش الجميع في سلام.

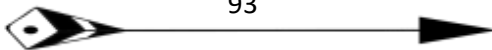
لا تنكر أن القناعة تغادرها في بعض الأوقات وأن يتمها يتعمق عندما ترى في المول زوجاً بصحبة زوجته يحترم رأيها ويحرص على رضاها.. ولا تنكر أنها ضعيفة أمام الرجال الذين يبدون إعجابهم بها وبشخصيتها المرحية وبعد أن تلين وتنتشي من سحر كلماتهم وبعد أن يطعم الذي في قلبه مرض تعود إلى رشدها وتعنف نفسها بشدة، لا تعطي وعوداً أو كلمات فقط عينيها ترسل إشارات صامتة أو قد تفتح قلبها وتبوح بهمومها، والتجربة تثبت أن كل الرجال خُلِقوا من طينة واحدة فهم يتأثرون بضعف الأنثى ويهيمنون على وجوههم بانكسار امرأة غريبة غير زوجاتهم أو



قربياتهم، لذلك أجادت تلك الأدوار فما أسهل أن تمرر دمعة حزن من عينيها أو تطلق زفرة ضيق أو ترسم ملامح الألم على وجهها، فقد أتقنت هذه الأدوار في الحقيقة لذلك تستدعيها بيسر وسهولة وتكون نتائجها سريعة فمنهم من يعرض المال أو الهدايا فتقبلها في صمت لكن عندما يعرضون أشياء أخرى ترفض وتنسحب وتغلق كل سبل الحوارات، البعض منهم لا ييأس ويظل يحاول مرات ومرات ولا يجد سوى الصد أو قد تسمح بالقليل الذي لا يؤذيها ولا يورطها في مصائب جديدة لكنه يُرضي الآخرين؛ فبعض الرجال إذا حصلوا على قبلة من غير زوجاتهم يشعرون أنهم حققوا نصراً كبيراً وإنجازاً يُضاف إلى سجلات حياتهم، لكنها تعود وتعاني من نوبات الذنب وتأنيب الضمير ولا يخلصها منه سوى اللجوء إلى الله والجلوس في المسجد للتوبة والدعاء والحديث مع الله سبحانه وحده مطلع على قلبها يعرف أسرارها لا تبوح بها لغيره، حتى قبل أن تهم بفعل هذه الأشياء

تقول في سرها: "سامحني يا الله أنا لم أختَر أن يكون لي زوج كهذا ولم أختَر أن أكون يتيمة فلا يوجد عندي من أحتمي به أو ألجأ إليه سواك"، ويظل يلازمها الندم لبعض الوقت ليس فقط لشعورها بالذنب ولكن أيضاً لأن تلك الأشياء لا تُشبعها ولا تُرضيها، هي لا تريد سوى زوج رجل حقيقي يحبها وتحبه يكتفي بها وتكتفي به، لذلك خلق الله حواء لآدم وجعل الزواج سكناً ورحمة ومودة، إعلاناً وإشهاراً وقبولاً هو يتباهى بما يفعله معها وهي ترضى وتفتخر ببطنها التي تعلقو وتنتفخ يوماً بعد يوم، هو يرضى باستحواذها عليه وهي ترضى بأن تكون له وحده، حتى لو ظهر أمامها يوسف الصديق بجماله الذي يسلب العقل والفؤاد فلن تكون مثل زليخة وصاحباتها ولن تنظر سوى لبعْلِها.

نهلة التي تبدو هادئة أمام الجميع وتملك العقل والحكمة لا يعرف أحد أن داخلها صراعات وأصوات وشجارات بين ما كان وما يجب أن يكون، بين ما تريد وما ترفض بين احتياجاتها



وقناعاتها، هكذا كان الفارق بينها وبين ليلى ليس في المستوى المادي فقط، ولكن في الاستقرار والحياة الزوجية الهادئة.. ليلى لا تشتكي سوى من الوحدة لانشغال زوجها ونهلة مفرغة من كل شيء.

لكن ليلى تحترم خصوصيات الآخرين ولا تقحم نفسها في حياتهم إلا إذا طلبوا ذلك، فلم تعرف عن نهلة سوى ما يعرفه الجميع أنها ربما تكون فقيرة لكنها ودودة ومرحة لابقية أحببتها ليلى بقدر ما أرادت أن يكون لها صديقة، وذات يوم بينما ليلى تحكي لها عن ماضيها البعيد فكت نهلة رباط لسانها وحكت عن زوجها وعن حياتها البائسة معه، صدمة ليلى بقدرتها على تحمل شخص كهذا وظروف صعبة بهذا القدر مع الحرص على الظهور أمام الناس بشكل مرح، جعلت الشفقة تتعمق داخلها وتشغل بالها بكل عاجل لكل مشاكلها، وأولها تشجيعها على الانفصال وطلب الطلاق.

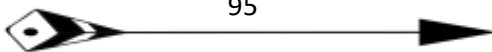
في الواقع أن نهلة لم تسع إلى شيء من هذا القبيل لكن ليلى
أقنعتها بالأسباب والمبررات:

أولاً هو لا ينفق وليس لديه المقدرة على الانفاق.

ثانياً لا يبدو كزوج ولا يشبه الرجال.

ثالثاً لا يصلح أن يكون أباً.

رابعاً والأهم من كل ما سبق من حقها أن تعيش حياتها كإنسانة.
وعدتها ليلى بالمساعدة في توفير سكن مناسب لها ولا بنتها
والاستعانة بمحامٍ ماهرٍ ليساعدها في الحصول على حقوقها كاملة.



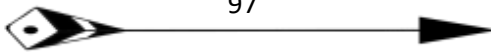
6

" الدنيا لا تمنح نفسها لأحد دون أسباب فالرب في السماء يوزع الأرزاق.. ولو كانت الأرزاق في يد أحد من خلق الله لجاع الناس وماتوا جوعاً.. لكنه العاطي يُنزل الرزق بقدر معلوم كي لا يطغى العباد من فرط النعم كما طغى فرعون وهامان، ولو جاء الررزق دفعة واحدة لما شعر الناس بمحاجتهم إلى إله ولا بمحاجتهم إلى العبادة والتقرب إليه بالصلاة والصيام كما فعل قوم عاد، الله ينزل الرزق على العباد كحبات المطر التي تنزل قطرة قطرة لتروي الأرض العطشى ولو همرت السحابة كل مائها لتضرر البلاد والعباد.

والأرزاق تنتقل من السعة إلى الضيق ومن العسر إلى اليسر ومن التعاسة إلى السعادة ومن الفرح إلى الحزن ومن الصحة إلى المرض أحوال تتبدل وتتغير من حال إلى حال، هكذا يقدر مقسم الأرزاق

حسب علمه فمن الناس من يناسبه الفقر ولو كان غنياً لطفى
وبغى، ومن الناس من يناسبه المرض ولو كان عفيفاً لبطش
واستغنى، ومن الناس من يذله الفقر والمرض فيعزه الله بالغنى
والعافية.. حكمة لا يعلمها سوى الله ولو علم العباد الغيب
لاختاروا الواقع، ولو اطلعوا على المقادير لامتلت الدنيا قسطاً
وعدلاً بدلاً من الظلم والجور.. لكنه الإنسان هكذا ضعيف أمام
الشهوات الدنيا ومعترض أمام حكمة الله ولا يملأ عينيه سوى
التراب حين ينثرونه عليه في القبر."

كانت نهلة شاردة في درس من دروس المسجد عن " القدر " وهي
تشعر أن كل كلمة في الدرس موجهة إليها، فلم تكن تتخيل أن
الأقدار تتبدل بسرعة هكذا وما بين ليلة وضحاها تحصل على
حريتها وتترك ذلك الزوج العاق وتنتقل هي وابنتها إلى السكن
في حي راقٍ، بعد أن كانت تغرق في مستنقع حي شعبي عفن بروائح



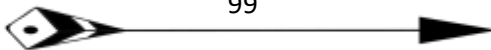
الناس والحكايات، ليس هذا فحسب بل إن ليلي بما تملكه من مال عازمت على عمل مشروع وأرادت أن تأخذ نهلة شريكة لها بالجهد والأفكار.. وقد اقترحت عليها نهلة أن تؤسس شركة سياحية صغيرة. لكن هاتان اليتيماتان اللتان جاءتا من العدم تعرفان كيف ستكون كبيرة، كبيرة للدرجة التي تدر كماً من الربح الوفير يكفي ويفيض ليكبر المشروع ويصبح بذرة لمشاريع كثيرة.

نهلة لم تعد رخيصة مبتذلة تستضعف أمام الرجال لتتسول المال والمشاعر، وليلي لم تعد وحيدة منكسرة حبيسة ذكريات بعيدة وحادث أليم والعمل يشغل كل الوقت ويستهلك الجهد، ولا يوجد منفذ يتسرب منه شعاع من الماضي.

انبهر محمد محمود بالذي حدث على غفلة منه؛ في خلال شهور قليلة أصبحت زوجته من أكبر سيدات الأعمال في مصر، يتردد اسمها في السوق وعلى ألسنة الرجال.. كيف لم ينتبه إلى مواهبها

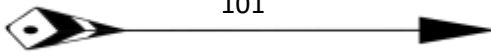
الإدارية من قبل ومهارتها في كسب المال بالشكل الذي جعلها تزداد ثراء يوماً بعد يوم.. بالطبع مال حلال تكسبه من كد العمل وليس من الغناء، وصديقتها تلك التي جاءت من العدم تبدو كالخادم المطيع أو كالظل الذي لا يترك صاحبه تلازمها في الشركة والنادي والسوق، وحتى في البيت لا تتركها إلا في ساعات الراحة والنوم.

وليلي التي شعرت أن الله عوضها بزوجها الورع التقي، لم تكن تعرف عنه سوى أنه رجل متدين يخشى الله ويكسب رزقه من الحلال، وأعان امرأة على التوبة والتقرب من الله، ولم تكن تعرف أن محمد محمود الذي يكبرها بخمسة عشر عاماً خلفه قصة لا تقل إثارة عن قصتها، فهو ابن عين من أعيان قرى الصعيد ووجيه من وجهائها المعدودين، نشأ ما بين المسجد والمدرسة بيتهم لا يخلو من جلسات العلماء والمشايخ والمقرئين، ومآدبهم لا تفرغ صحنها التي تُنصب للجميع أغنياء وفقراء.



أراد الأب المتعلم والحاصل على مشيخة الأزهر أن يعلم أبناءه ليصبح منهم الطبيب والمهندس والعالم بأمر الدين والقاضي والضابط، كان محمد أصغرهم يشاهد يوماً بعد يوم حفلات تخرج إخوته كأنها أعراس لا تنتهي والبيت لا يخلو من المهنيين والمتقربين طمعاً في الود وفي النسب، لكنه الوحيد من بين إخوته الذي كان يتعثر في الدراسة، وفرحُ أبيه بأبنائه الكبار لم يجعله ينتبه لذلك الصغير العنيد الذي كان ينفر من كل الاحتفالات ومن جلسات العلماء وموائد الضيوف فيترك البيت في أثناء تلك التجمعات ويذهب ليجلس تحت شجرة السدر الكبيرة، ينصت لأصوات العصافير ويعزف بالناي بعيداً عن أبيه الذي ينهره كلما سمع صوت الناي ويقول في غضب إنه صوت الشيطان، لكن الشيطان أغواه بترك البيت والتجول في الحقول ليعزف كما يشاء وهو يوسوس في إذنه:

"إذا كان الله خلق الأصوات الجميلة مثل صوت العصافير والبلابل وأصوات المنشدين الذين ينشدون في البيت الكبير بمدح الرسول وأهل بيته فلماذا صوت الناي الجميل حرام؟"، ولم يقتنع بما قاله أبوه بأن الشيطان صنع الناي ليلهي الإنسان بصوته الشجي عن ذكر الله، ومن هذا الناي خرجت المعازف وصار الناس يرددون الأغاني في جلساتهم وبيوتهم بدلاً من آيات الذكر الحكيم، لم يقتنع محمد بهذا الكلام لأن إذنه اعتادت على سماع الأصوات الجميلة منذ أيامه الأولى لكنه كالنشاز في سلم موسيقي منتظم وبدلاً من تلاوة القرآن على طريقة أحد القراء المشهورين بحث لنفسه عن شيء مختلف واختار من بين الأصوات صوت الناي الذي عثر عليه مصادفة في أشياء قديمة تخص جده الكبير، فأخذه وأخفاه عن أبيه الذي لم ينتبه إلى وجوده من الأساس، شعر أنه يخفي سراً كبيراً أو أمانة تخص جذور العائلة وكثيراً ما كان يسأل نفسه: "تُرى هل كان الجد الكبير عازف ناي أم أنه احتفظ



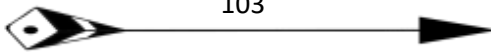
به لذكرى تخص أحدهم" لم يجد جواباً يقنعه، لكنه وجد نفسه يهيم به عشقاً ويتحين الأوقات التي يجلس فيها وحده كي يعزف بحرية وإحساس مرهف.

ولم يكن لديه أصدقاء من أبناء القرية سوى بنت العمدة التي كانت تأتي مع أمها لتقديم التهاني والتبارك للتقرب من أمه زوجة الشيخ محمود... تجدها فرصة مناسبة لتضع أقدامها في بيت العلم والعلماء وتفتخر بما ترى وتسمع بين النساء، اعتاد أن يلعب معها السيجا والحجلة ويتحدث عن أحلامه المخيفة التي تفرعه في منتصف الليل، ويحكي كل ما يعرفه من إخوته عن الحياة في القاهرة، حيث دراستهم في جامعة الأزهر ويروح لها بسره الكبير إنه عندما يكبر سينتقل للحياة والاستقرار في العاصمة.

وبنت العمدة التي تصغره بعام واحد تكبر يوماً بعد يوم وامتلأ عودها النحيف ووظائفها الجامحة توارت خلف الحجاب.. بنت العمدة لم تعد تأتي بصحبة أمها، لأنها نضجت وأصبحت عروسة

عليها العين أما هو فلا زال يتعثر في الشهادة الثانوية وبعد رسوبه عاماً، وعاماً استطاع الحصول على مجموع أهله للالتحاق بإحدى الكليات النظرية في جامعة الأزهر وأخيراً سيحقق حلم حياته وينتقل إلى الحياة هناك مدة الدراسة.

وفي القاهرة الكبيرة كالبحر المالح وجد فرصته الذهبية للالتحاق بإحدى الفرق الموسيقية دون علم أباه الذي أصابه وهن كبر السن ولا يدري بما يحدث من خلف ظهره لكن العمل في مجال الموسيقى لم يكن سره الوحيد بل توالى الأسرار في غفلة المدينة حيث السهر والشرب والراقصات كأنه أراد أن ينحرف ليغير مسار تلك الأسرة العريقة ليضيف نقطة سوداء إلى سجلاتها البيضاء ليتمرد على كل ما هو طبيعي واعتيادي، ولم يكن في حسابه ما حدث بعد ذلك فهو لم يخطط له ولم يسع إليه لكنه شيء يشبه النار يشتعل وحده من مجرد شعلة هب؛ فقد اشتعل في قلبه عشق فتاة من فتيات الليل رغم ما تعلمه في الصعيد عن الشرف والعفة



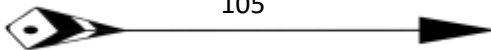
وبنات الأصول، لم يستطع كبح زمام نفسه منذ لقائهما الأول هو نفسه لا يعرف سبباً محدداً لما حدث، فلا يوجد ما يميزها عن الأخريات سوى نظرة عينيها الحزينة رغم ما تبدو عليه من مرح... وسوى قصتها التي حكتها له ذات ليلة بأنها من عائلة كبيرة وغدر بها أحدهم وهرب وتركها وحدها تواجه مصيرها ومصير ما تحمله بطنها، ولما ضاقت عليها السبل ولم تجد مخرجاً هربت من قريتها في شمال الصعيد إلى مدينة بني سويف ومن مدينة لمدينة حتى استقر بها الحال في القاهرة حيث تاهت وسط زحامها وشوارعها.

ربما أسرته مشاعر الشفقة أو جادل نفسه يوماً لماذا نختزل قيمة الشرف في منطقة واحدة من جسد المرأة، أليست اليد تسرق واللسان يكذب والقلب يحقد والعقل يخطط للشرف نترك كل هؤلاء وربما نوسم أصحابهم بالمقام العالي من الشرف، ونختصر كل الشرف في خطيئة وحيدة، ربما لم تكن تريدها ولم تستمتع

بها وكل جريمتها أنها لم تستطع مقاومة اليد التي امتدت نحوها..
جادل نفسه وقادته الشفقة إلى عشقها.

هي أيضاً فرحت به ولاذت به من بؤس العالم واعتزلت المهنة بعد
زواجهما العرفي واكتفت معه بالفقر والمزاج المتقلب من تبعات
الخمر والمخدرات، لكنها لم تحتمل كثيراً حين أبرحها ضرباً ذات
ليلة بعد أن تمكن منه السكر وغاب العقل، فدفعته بعيداً عنها
وفرت بثياب النوم ولم يعثر عليها مرة أخرى لكنّ أباه عثر عليه
بعد خطاب الجامعة بفصله لتكرار الرسوب، عثر عليه وأصدر
حكمه بالعودة إلى القرية وردم ذلك الماضي قبل أن تفوح رائحته
ويمس سمعة العائلة.

ذلك الأب الشيخ الأزهري حافظ كتاب الله لم يهزمه الزمن
والشقاء وهزمته زلة ابنه، لم يحتمل حقيقة ضياع قطعة من لحمه
وسقوطه في الهاوية، فمات بعدها بأيام قليلة وتلبس شعور الذنب
محمد وهام على وجهه في الحقول وعندما يتعب يأوي إلى جذع



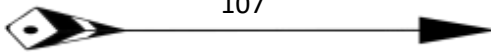
شجرة السدر العتيقة وينام تحتها، أدركه أخوه الأكبر الذي ورث عن أبيه العلم والدين، وشده من مستنقع الوحدة والحزن، وأخذه معه إلى المسجد وأمام باب المسجد الذي يحمل اسم الشيخ محمود شعر بالخلج والخبزي، وأراد العودة لكنّ أخاه أمسك بيده وحدثه عن التوبة وأجر التائبين، فلم يمتلك زمام نفسه وبكى بكى كثيراً على عمره الذي تسرب منه بعيداً عن الله.

وعندما سُفي من آثار المخدرات نظر حوله ولم يجد سوى إخوته، كان يتوقع أن يعاقبوه على ما حدث أو يلوموه على موت الأب بحسرتة، لكنه وجدهم يمدون له أيديهم ويحافظونه بالرعاية والدفء، حينها تذكر قصة سيدنا موسى عندما خرج من مصر هارباً وعاد إليها نبياً ليدعو فرعون إلى الإيمان بالله وحده، فرعون كان يملك السلطة والسحر والقوة كان يملك أن يقتل موسى أو يسجنه ربما اهتز موسى بشعور الخوف للحظات لكن الله تعالى قال له: "سنشد عضدك بأخيك"، الأخوة هي القوة والسند هي

الأمن والأمان لكن الناس ينسون تلك القصة ويتذكرون قصة الغيرة والغدر في قتل قبايل لأخيه هايبيل، نسوا هارون وتذكروا قبايل، وخذوا حذوه في الغيرة والغدر وحب النفس والأنانية.

وجد في إخوته معنى الأخوة الحقة ولم لا؟ أليسوا تربية الشيخ محمود.. أليست هذه هي بركة الصدقة وإطعام الطعام.. أليست هذه آثار القرآن الذي يُتلى آناء الليل وأطراف النهار! بالتأكيد هذه آثار البركة؛ ترك لهم نفسه ينظفون ملابسه ويحلقون ذقنه الشعثة ويهدبون شعره ويحفظونه القرآن الذي فشل في حفظه وهو صغير، ولم يكتفوا بذلك بل تنازلوا عن حقهم في ميراث أبيهم ومنحوه له ليبدأ به حياة جديدة.

واتجه إلى التجارة لكن القرية لا تتسع لنمو رأس المال فأهلها لا يحتاجون سوى القليل من الثياب والكثير من الستر، لذلك قرر العودة إلى القاهرة لكن هدفه هذه المرة مختلف عن المرة السابقة، فقد عاد ليعمل ويربح عاد بصحبة كتاب الله الذي حفظه يرافقه

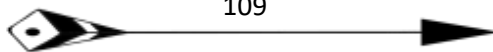


دعاء أخوته بالتوفيق والسداد وبدأ مشروعه الصغير الذي كبر شيئاً فشيئاً، وأصبح تاجراً له شأن في السوق.

وعندما سمع عن قصة توبة ليلي من زوار المسجد الذي يتردد عليه للصلاة تذكر فتاة الليل التي أحبها ذات يوم وتذكر حياته قبل موت أبيه؛ فقرر أن يمد يده إليها ليساعدها على التوبة كما فعل معه إخوته.

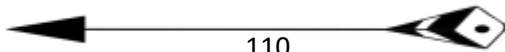
لكن هل ينتهي عنده شعور الشفقة.. هل سيتك حياته تسير على وتيرة واحدة من الانهماك في العمل والإخلاص للزوجة وتربية الولد تربية صحيحة.. ربما أراد شيئاً يكسر به روتين حياته.. مجرد حجر يلقيه في الركود والملل مجرد حجر صغير ولم يقصد أن تتجه كل مشاعره نحو نهلة فظروفها لا تختلف عن ظروف ليلي بل هي أشد قسوة وابنتها التي بلا أب في حاجة إلى من يعولها ويغدق عليها المشاعر.

ولم يكن وحده الذي يفكر بهذه الطريقة، ولم يكن يحمل بين ضلوعه حباً من طرف واحد، فنهلة أيضاً ظلت تقاوم شعور الانجذاب إليه، ظلت تطرده من أفكارها وتحاصره داخل قلبها حتى رأت نفسها ذات حلم تنجرف إليه وتلقي بنفسها في أحضانه، عندما استيقظت لامت نفسها وعنفها كيف تخون الإنسانية الوحيدة التي مدت لها يد المساعدة كيف تجرح رفيقتها التي خرجت بها من رحلة عمرها، فالصداقة الحقيقية نادرة الحدوث لكن الرجال كثر وستجد أمثال محمد في كل مكان تذهب إليه كل ما عليها أن تصبر حتى يأتيها نصيبها، وكل ما تحتاجه هو العزيمة وقوة التحمل كي لا تخسر كل ما كسبته بخطيئة واحدة.



القسم الثالث

ما بين الحب والخيانة موت وحياة



1

كان أبوه دائماً يردد أن الرجال مواقف، وهذا ما فعله عندما تعرضت ابنة نهلة لحادث، فعل ما يجب فعله كرجل تجاه امرأة وحيدة، لكن كل ما فعله لم ينقذ الطفلة التي ذهبت ضحية لسيارة طائشة يقودها شاب متهور تحت تأثير المخدر، ونهلة التي ظنت أن الحياة ابتسمت لها تعاني الشكل في ابنتها الوحيدة صدمة أكبر من كل صدمات حياتها.. وجع أكبر من وجع اليتيم، بالطبع لم تتركها ليلي زادت الأوقات التي تقضيها معها.. حتى صارت نهلة جزءاً لا يتجزأ من العائلة ورأت أن اهتمام محمد بها من الواجبات التي يتحتم عليه أداؤها، لكن نهلة أضعف من أن تقاوم إنساناً برجولة محمد، هي لم تعرف الرجال من قبل، فعمها كان يبقئها معه ليستأثر بمبلغ المعاش الشهري وبمجرد ضجر زوجته منها أعطها لذلك الذي يتشبه بالرجال وليس منهم فقط ليُرضي



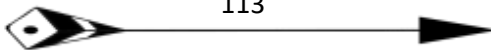
زوجته؛ فلم تعرف في حياتها أباً أو أخاً أو صديقاً أو حتى زوجاً وحبیباً، لم تتذوق الأمان ولم تر تلك الأخلاق النبيلة من قبل.. ولم تعرف رجلاً يتودد إليها دون أن يكون له غرض آخر سوى محمد مهما حاولت منع نفسها لن تقاوم أكثر من ذلك.

وما حدث بعد ذلك لم تخطط له؛ كانت إجازة صيفية أصرت ليلي على دعوة نهلة لقضاء بضعة أيام معهم في شرم الشيخ.. وهناك أمام البحر والسماء والهواء تفجرت مشاعرهما انهارت أنوثتها أمامه وتكشفت رجولته عليها، لكنهما يشعان بالذنب تجاه ليلي، وهو رجل ابتعد عن الحرام وأقسم ألا يعود إليه مهما كان الثمن، فاتفق معها أن يكون الزواج سرياً بمجرد العودة.

وبعد انتهاء المصيف أقنعت نهلة صديقتها أن لها أقارب في مدينة الإسكندرية وستقوم بزيارتهم، رقت ليلي لوجود بارقة أمل في حياة نهلة من الممكن أن تنتشلها من وحدتها وحزنها فأعطتها

تصريحاً بالإجازة مع مبلغ مالي إضافي لزوم الرحلة، انسحبت ليل
من أمامها وهي تصارع ضميرها وترود عقلها على الوضع الجديد.
هل الحب أقوى من الوفاء.. أحبت صديقتها لا تنكر فضلها ولم
ترد ولم تخطط للزواج من زوجها فالقلب هو الذي يختار ونحن
مجرد أدوات ننفذ مشيئته، ومحمد رجل فاضل عارف بأمور دينه
ولن يظلم ليلي أو ابنه، ثمَّ أنها ستحرضه على الاهتمام بليل أكثر،
هي تعرف ما الذي يسعدها وستدفعه إلى إسعادها، ثمَّ إنها لا تطمع
في شيء من مال أو ثروة فهذه أشياء لا تشغلها ولا تسعى إليها
يكفيها أقل القليل لتعيش به.

هكذا بررت نهلة لنفسها ما حدث وتحررت من شعور الذنب
واستقبلت أيامها القادمة كزوجة لرجل أرسله الله لها في الوقت
المناسب، ولأول مرة تشعر أنها زوجة تجلس على عرش قلب رجل
لأول مرة تشعر بالدفء وبالسند.. وعندما عادت من إجازة
العسل والتقت بليل التي بالغت في الترحيب بها شعرت بغصة في



قلبها ليلي التي باحت أمامها بكل أسرارها بكل تجاربها الفاشلة في الحياة بكل مواجهها تشاركها زوجها وتسرق شيئاً من سعادتها.

وليلي رغم انشغالها بابنها وبالعمل إلا إنها تشعر بثمة ما يتغير في محمد لم يعد بنفس شغفه الأول بنفس لهفته عليها، تشعر بفتوره نحوها وببروده في الفراش، ترى تجاهله لأمر كثيرة كان يوليها اهتمامه من قبل.. ترى غيابه المتكرر في أوقات العطلة بدون أعذار، لكنها مجرد شكوك وأوهام في رأسها لم تنتقل إلى مرحلة اليقين... تعرف أن كل هذه الممارسات ليس لها سوى نتيجة واحدة إنه منشغل بإحداهن أو متزوج بأخرى.. لكنها تكتمت حتى تملك الدليل.

أقدمت على أشياء لم تكن تفعلها من قبل كأن تفتش في ملبسه عن رائحة نسائية أو شعرة مختلفة عن شعرها أو أي هفوة تأخذها دليل إدانة ضده، تعرف أن أي جريمة في الدنيا مهما كانت محكمة

التخطيط فلا بد أن تترك خلفها أثراً وهي حتماً ستعثر على هذا الأثر.

لاحظت نهلة القلق والتوتر في عينيها فسألتها عما بها وبعد تردد باحت لها بسرها الأخير:
- أشك في محمد.

ارتبكت نهلة شعرت كأن أحدهم مزق ملابسها وتركها عارية أمام ليلى فاستجمعت شجاعته وقالت:

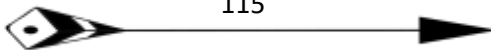
- لماذا؟ هل تغير معك؟ هل قصر في أمر ما؟

- تغير في كل شيء لم يعد كما كان في الماضي.

- لعله منشغل بمشاكل العمل.

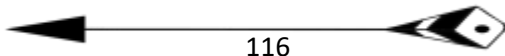
- كان يهرب من مشاكل العمل في حضني، بل كان يفر من العالم كله ويأوي إليّ.

وقفت نهلة واجمة شاردة لا تدري ماذا تقول، سرقتها السعادة ولم تنتبه أنها تسرقها من صديقتها، نهلت مع محمد من عسل الحب



ولم يشعرا بما يفعلانه في ليلي، حق الصداقة والعشرة يدفعها إلى التمهّل قليلاً يجب أن تدفع محمد إلى الاهتمام بليلي لتتلاشى كل أسباب الشك لديها.

اتفقت معه أن يركز كل اهتمامه بها في الفترة المقبلة حتى تتجاوز مرحلة القلق والتوتر وحتى تستعيد توازنها النفسي، وأن يبتعدا عن بعضهما أو تكون لقاؤاتهما على فترات متباعدة لا تُلاحظ ولا تُرصد من ليلي.

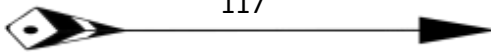


2

للخيانة رائحة يعرفها الصادقون الذين يلونون قلوبهم بلون النقاء
ويفرغون عقولهم من كل مكائد الدنيا وزينتها البراقة، التي تحدع
الطامعين وغير القانعين بما قسمه الله لهم.

لا تدري ليلي لماذا تشم رائحة الخيانة تفوح من زوجها، لأول مرة
تشعر بعدم صدق مشاعره... تشعر بكذب الكلمات التي تتبخر
على لسانه قبل سماعها فهو يقول أحبك وعينه تفضحه بنظرة
بعيدة كأنه يرى الأخرى في عقله... يحضنها بفتور ويسير معها
وهو شارد حتى وهي تضع رأسها على صدره تشعر أن داخله امرأة
غريبة، رغم قضاء كل أوقات العطلات معها ومع الولد إلا أنها
تعرف أن ثمة ما تغير بينهما.

أما نهلة فقد زاد اهتمامها بليلى ربما أرادت أن تعوضها عما
سلبته منها أو للتمويه ودفع الشبهة عنها أو للتخلص من بقايا



شعور الذنب وليلى كل يوم تفضي إليها بهواجسها وهمومها مع زوجها، ومن غيرها يصلح للبوح أمامها بالأسرار، ومن غير نهلة يعرف كيف ينزع الشكوك من رأسها وييث الطمأنينة في روحها وهي تهمس في أذنها: "وهل سيجد أجمل منك وأفضل منك هو يعرف أنك تركت كل الرجال لأجله، ولو شئت لتزوجت غيره، ثم إنك أم الولد وأنت تعرفين مقدار حبه لابنه وتعلقه به "

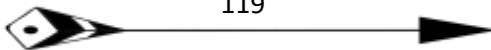
تقتنع ليلى وتهدأ لساعات لكن بمجرد رؤيتها لمحمد تعود إليها الهواجس التي تطورت إلى شجارات عديدة لا تنتهي، أو تنتهي بتدخل نهلة بينهما للصلح.

عام يمضي ولا من راحة ولا من فاصل من المشاكل التي تجعلها في معزل منه طوال أيام الأسبوع يجدها فرصة مناسبة لترك البيت دون محاسبة أو سؤال، حتى قررت أن تنهي الشكوك باليقين فاستشارت أهل الخبرة من أصدقاء المسجد القدامى وأفتوها باستخراج بيان حالة لزوجها من السجل المدني وسيظهر به عدد



الزوجات والأولاد... ولأول مرة لا تخبر نهلة بما تفعله ربما خشيت أن تثني من عزيمتها وتبدد شكوكها كما تفعل دائماً وربما أرادت أن تحتفظ بالسر لنفسها.

الطريق إلى السجل المدني شاق وطويل هكذا بدا لها أطول من كل الطرق التي سارت فيها بالسيارة أو حتى على قدميها، كاد قلبها يقفز من صدرها وهي تصعد درجات السلم الحجري القديم حتى وقفت أمام الموظف المختص وقدمت الأوراق المطلوبة ومبلغاً صغيراً وضعت في درج المكتب لزوم الشاي والسجائر كي ينهي الطلب سريعاً، بحث في بيانات الكمبيوتر ونسخ الورقة، أخذتها منه ولم تنظر فيها تعمدت ألا تنظر فيها أمام أحد كما كانت حريصة ألا يطلع أحد على سرها. طوتها بهدوء ووضعتها في حقيبة يدها وعادت إلى شقتها... دخلت غرفتها وأغلقت عليها الباب بالفتاح كي لا يفاجئها محمد بحضور مباغت لا تعمل له



حساباً في رد الفعل، أخذت نفساً عميقاً وفتحت الورقة بحذر
 كأنها تفتح تعويذة سحرية تخشى أن تحل لعنتها على البيت قرأت
 ربما بصوت عالٍ أو منخفض:

الاسم محمد محمود الليثي

الزوجة الأولى ليلي إبراهيم الورداني

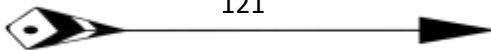
الزوجة الثانية نهلة سعيد حميدة

الابن.....

لم تتجاوز عيناها الزوجة الثانية واسودت الدنيا أظلمت الغرفة
 اختفت الأشياء من حولها هبطت السماء على الأرض، وانطبقت
 عليها الجدران الأربعة، لا تعرف كم من الوقت مضى عليها
 وهي غائبة عن الدنيا كل ما تذكره أنها انتبهت على شعور الصقيع
 يتسلل إلى أطرافها، فقد كان شتاء قارس والمطرينهمر بشدة بينما
 الدموع تتحجر في مآقيها أمسكت بالورقة التي وجدتها ممزقة على
 الأرض كجثة لعدو لدود في معركة ضارية، جمعت أشلاءها وقرأت

الاسم مرة أخرى ليصدق عقلها "الزوجة الثانية نهلة سعيد حميدة.. نهلة سعيد حميدة.. نهلة صديقتي الوحيدة التي اخترتها من بين كل رفيقات المسجد والتي أنقذتها من زوجها الفاسق، وقفت بجانبها وساعدتها حتى وصلت لمكانة لم تكن تحلم بها... نهلة من كنت أفضي إليها بأسراري... نهلة من كنت أشكو إليها ما وصل إليه حالي معه... نهلة...."

بدأت الدموع تنهمر كالمطر سرعان ما تحولت إلى صياح صرخات لطم على الخدود شق الملابس الشتوية السميقة، ثم عويل طويل ربما لساعة لساعتين لثلاث، كأنها فاجأها خبر موت عزيز عليها حتى غلبها التعب وبع صوتها، فهدأت وسكنت سكون المقابر مددت جسدها على الأرض غير عابئة بالصقيع ولا الشتاء. فالنار التي في قلبها تكفي لحرق العالم كله، ظل فمها يزيد وعينها مفتوحة متحجرة من يراها للوهلة الأولى يظن أنها فارقت الحياة، أو تحاول أن تفارقها ولم يشدها إلى الواقع سوى صوت طرق على



باب حجرتها يقف خلفه ابنها ينادي عليها ويبيكي لبكائها...
صوته يسحبها من احتضارها ويعيد إليها العقل، فهزت نفسها
ذات اليمين وذات اليسار كي تستطيع الوقوف سارت ببطء
وفتحت الباب فرأت ابنها ينظر إليها وهو يرتجف من الخوف،
استجمعت قوتها وسألته:

- ما بك يا حبيبي؟

- كنت نائماً وسمعت أصواتاً غريبة تأتي من غرفتك هل أنت بخير

يا أمي هل الأشباح جاءت عندك الليلة؟

- لا يا حبيبي لا توجد أشباح.

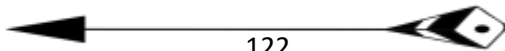
- لكنني خائف.

أخذه وضمته في صدرها وهي تهمس:

- لا تخف سأذهب لأنام معك أمهلني دقيقة واحدة فقط.

جلس ينتظرها على السرير وبسرعة دخلت الحمام وغسلت

وجهها لكن غليان رأسها لم يطفئه سوى أن تضعه تحت الماء



البارد، وعندما رفعته اصطدمت بوجهها في المرأة، فرأت ما أفزعها
رأت وجهاً غريباً غير الذي خرجت به في الصباح وجه مليء
بالذعر أو الانكسار أو الحزن.. خبرة مشاعر بعيدة تعود وتحمل
مساحات كانت تحسبها بيضاء.

جففت رأسها بسرعة وخرجت إلى ابنها وضعت في الفراش ونامت
جواره وهي ترتعد وتنتفض وتهتز وترتعش فأمسك بيدها وسألها:

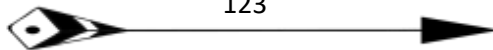
-هل لا زالت الأشباح موجودة؟

عادت بذاكرتها إلى أيام الملجأ وكوايبس النوم وأبو رجل مسلوخة،
وتذكرت ما فعلته أمها سهير كي تنقذها من الخوف والكوايبس،
كانت تنام جوارها وتحكي لها حكاية ما قبل النوم فقالت له بصوت
مرتعش:

-ما رأيك أحكي لك حكاية جديدة.

راقت الفكرة للصغير فشجعها وقال:

-فكرة جميلة احكي يا أمي.



مارست لعبتها القديمة في العد حتى هدأ جسدها واستطاعت
تذكر حكاية قرأتها ذات مرة في إحدى المجلات:

- سأحكي لك عن لقاء علي بابا مع الأربعين حرامي.

- حسناً أتتوق إلى سماعها.

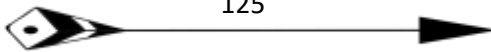
- كان ياما كان في قديم الزمان كان يوجد رجل اسمه علي بابا... كان
علي بابا يعمل خطاباً وما أن يخرج لجمع الخشب حتى يصيبه الملل
فيعود إلى بيته سريعاً يمدد جسده على الفراش ويستسلم للنوم
العميق، ولا يهتم بأي شيء يحدث حوله، فيأتي صديقه ويطرق
الباب في حاجة إلى المشورة، لكنه نائم ويأتي جاره ويطرق الباب
في حاجة إلى المساعدة لكنه نائم، ويأتي الزبائن يسألون عن
الخشب لكنه نائم.

لم يكن يفعل في حياته سوى النوم ولا يعشق غير النوم، حتى
ابتعد عنه الجميع ورفضوا التعامل معه؛ فالخباز لم يعد يعطيه
الخبز واللبان لم يعد يعطيه اللبن والفلاح لم يعد يعطيه

الخضروات والأصدقاء لم يعودوا يسألون عنه فالجميع يعرف أنه كسول عديم الفائدة.

غضب علي بابا من مقاطعة الناس له وقرر أن يرحل عن هذه المدينة التي يسيء أهلها معاملته بسبب عدم حبه للعمل، خرج علي بابا من بيته دون أن يعيره أي أحد انتباهه وسار في طريق الغابة فهو يعرف مسالكها جيداً منذ كان يجمع الخشب مع أبيه وهو صغير يعرف أن في نهايتها توجد مدينة أخرى لا يجب أهلها العمل.

كان يسير بخطوات متعثرة يكاد أن يسقط من شدة النعاس وكان الليل على وشك أن يرسو في الغابة... ثم تذكر فجأة المغارة التي كان يمر من أمامها فأسرع الخطى إليها... وجد الباب مفتوحاً والمغارة مظلمة شعر بالخوف لكن ليس لديه خيار آخر، فالغابة خلفه مليئة بالوحوش والظلام أمامه مليء بالغموض... وقف أمام المغارة بحذر أشعل المصباح الوحيد الموجود على الباب وسار إلى الداخل...



نظر يمينه ويساره وأخذ يتفحصها فلم يكن قد رآها من قبل رغم مروره عليها كل يوم جيئةً وذهاباً، وجد بها أشياء غريبة كان يتمنى وجودها؛ وجد فراشاً وثيراً وقنينة ماء كبيرة وصندوق طعام به أشهى أنواع الحلويات، وآلة عرض حديثة تعرض مشاهد لأطفال نائمين، لم يصدق نفسه فقد حصل على كل ما يريد فقد كان يشعر بالجوع والعطش والرغبة في النوم؛ ففتح الصندوق وأكل لحد التخمة، ثم شرب من الماء لحد الثمالة وشاهد صوراً لإناس يشبهونه، ثم غط في النوم العميق على الفراش الوثير لم يدرك كم من الساعات مضت عليه في النوم حتى سمع صوت ضجيج لكنه لم يهتمم قال لنفسه ربما أضغاث أحلام.

كانت هذه لحظة وصول الأربعين حرامي الذين غضبوا حين رأوا باب المغارة مفتوحاً فعرفوا أن الإهمال هو السبب، لكنهم لم يعيروه اهتمامهم، عندما دخلوا المغارة وجدوا أشياءهم قد تم العبث بها فصرخت التخمة من أكل كل هذا الطعام؟ وسأل



الإسراف من شرب كل هذا الماء؟ وتعجب الكسل من نام كل هذا النوم وبعثر فراشي؟ أما الفشل فقد ضحك قائلاً:

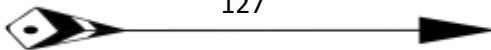
-لقد نجحت مهمتي في إقناع أحدهم بالنوم وعدم العمل.
أخذوا يفتشون المكان حتى عثروا على رجل نائم فالتفوا حوله وهم يتساءلون:

-من هذا وكيف جاء؟

في هذه اللحظة استيقظ علي بابا ورآهم... في البداية شعر بالخوف وتدلجج لسانه لكنهم أمسكوا الخوف وطردوه خارج المغارة، وغضب الكسل لأنه حل مكانه دون استئذان، أما التخمة والإسراف فقد حيوه على ما فعل تمجيداً لبقائهم في الدنيا.
حدث كل هذا وسط دهشة علي بابا فاستجمع قواه وسألهم:
-من أنتم؟

- قالوا: نحن الأربعون حرامي.

ثمَّ سأله بغضب: ماذا تفعل في مغارتنا؟



فحكى لهم قصته منذ كان صغيراً وعدم حبه للعمل، ثم استسلامه للنوم والكسل الذي جلب الإهمال والفقر وعدم تحمل المسؤولية. صفق له الجميع وقالوا: لقد جئت مكانك الصحيح فنحن الأربعون حرامي الذين نسرق الوقت والعمر وحب العمل والنجاح والود والتآلف سوف نعرفك بأنفسنا:

قال أحدهم: أنا الكسل

والثاني: أنا الإهمال

والثالث: أنا التخمة

والرابع: أنا الإسراف

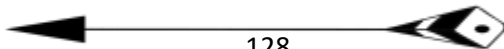
والخامس: أنا الفشل

والسادس: أنا الخوف

والسابع: وأنا العداوة

والثامن: وأنا الكراهية

والتاسع: وأنا الغيرة





والعاشر: وأنا الحقد

قال علي بابا: أنتم عشرة فأين الباقي؟

قالوا: عشرة منا تمثلوا في الخيانة.

سألهم: لماذا كل هذا العدد في واحد فقط؟

قالت الغيرة: لأن الخيانة أنواع وأشكال، فتوجد خيانة الصديق

وخيانة الحبيب وخيانة المبادئ وخيانة الوطن و....

انزعج علي بابا وقال: كفى كفى لقد فهمت معنى الخيانة.. لكن

هؤلاء عشرون فقط أين العشرون الأخرى.

قال الفشل: خرجوا بين الناس؛ فالكذب يجري على ألسنتهم

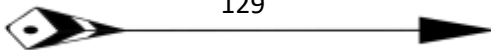
والحسد تحمله قلوبهم والنميمة والغيبة والفتنة يسعون لإثبات

وجودهم وغيرهم وغيرهم..

قال علي بابا: لكني لم أقصد أن أكون بينكم أنا فقط أحب النوم.

قالوا: كلنا نتجلى فيك الإهمال والكسل والفشل وعدم حب العمل

لذلك قررنا أن تبقى معنا.



قال: ماذا سأفعل؟

قالوا: ستكون زعيمنا فأنت أدري بعالم البشر منا، فتخطط لنا كيف نسرق النجاح ليتزعم الفشل ونقتل الشجاعة ليحل الخوف والجبن مكانه ونحارب الاعتدال ليعيش الإسراف ونطرد الأمانة لتسود الخيانة.

قال: وما المقابل؟

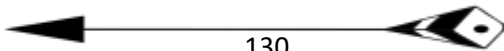
قالوا: ستنام بلا عمل.

أخذ علي بابا يفكر ويفكر قال: إن رفضت وعدت إلى بلدي فلن أجد الطعام، وإن تركتهم وذهبت إلى مدينة أخرى فلن أجد المال لأنفق منه، نظر إليهم وقال بعد تردد: "إذاً قبلت".

وهكذا تحول علي بابا إلى زعيم العصابة فيتسللون كل يوم بين الناس ليفسدوا الطموح ويقتلوا المبادئ والأخلاق.

نظر إليها الصغير في دهشة وقال:

- كنت أظن أن عصابة علي بابا يسرقون المال فقط.





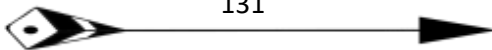
مسدت شعره بكفها وهي تقول:

-إن سرقة المال أسهل بكثير من سرقة الأخلاق والمبادئ؛ فالمال ممكن أن يردّه الحرامي إلى صاحبه إذا شعر بخطأ ما يفعله، أو يجتهد المسروق في العمل ويحصل على مال غيره، لكن الإخلاص والأمانة والحب والود إذا ذهبوا فإنهم لا يعودون ويفقد الإنسان ضميره، وأيضاً احترامه لذاته واحترام الآخرين له.

-أنا لا أريد أن يسرق علي بابا مني شيئاً.

-طالما أردت ذلك فلن يسرقك هو يسرق فقط من يتخلى عن كل هذه الأشياء الجميلة.

بسّطت كفها لتحضن كفه الصغيرة فأغض عينيه ونام مطمئناً، هي أيضاً نامت ولم تكن مطمئنة وهاجمتها الكوابيس؛ رأت نفسها تقتل محمد ونهلة والدم يغطي الأرض، وعندما ركضت هاربة رأتهما أمامها يغرقان في حمام سباحة مياهه عكرة وملوثة، ورأت نفسها في الملجأ والمشرقة تصيح بصوتها الخشن: "ناموا قبل

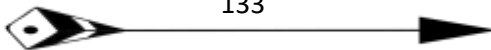


أن يأتي أبو رجل مسلوخة ويلتھمكم"، فتغطي وجهها وتكتم أنفاسها ورأت ربيع وهو ينادي عليها، وحين نظرت إليه رأت له أنياب وأظافر تنهشها وتقضم جزءاً من لحمها، تركته وهربت فجرت خلفها الكلاب تطاردها وتتبع قطرات الدم النازف منها، وجدت أمامها طرقاتاً مظلمة وفي نهايتها يقف ابنها وحيداً وينادي عليها، فتركض إليه وكلما ركضت اتسعت المسافة بينهما.

عندما استيقظت كانت تلهج كأنها قادمة من ركض طويل، نظرت إلى الولد النائم في هدوء لا يشعر بالبركان الذي يتفجر بجواره، جلست تفكر في مستقبله وفي الخطوة القادمة الواجب اتخاذها مع زوجها وصديقتها، كل القرارات صعبة وكل الاحتمالات مستحيلة زوجها وصديقتها الوحيدة، تحتل أي شيء في الكون عدا الخيانة، تحتل اليتيم والقسوة والاعتداء عدا الخيانة... لكن هذا الذي لاذت به من مكر الدنيا هذا الذي خلعت أردية الحزن

وأوت إليه هذا الذي أخذها من أوج شهرتها وقمة نجاحها واستوى على قلبها.. هذا الذي تجسدت فيه الأخلاق والمبادئ وأحبت معه الدين والالتزام.. هذا الذي علمها التسايح والذكر يلوك لسانه الكذب ويعتاد وجهه النفاق، كيف وافته الشجاعة كيف استطاع أن يفعل بها ما فعل كيف طاوعه قلبه وضميره ليخبئ عنها مدة عام كامل، وهو يعيش معها تحت سقف واحد منشغل البال والخاطر، ولم يكتفِ بخيانتها بل سلب منها صديقتها ورفيقتها تعلم أنها مذنبه مثله لكن ذنبه أكبر ولا يُغتفر.

كل المصائب التي مرت بها هينة عدا الخيانة وإذا غفرت وساحت ما أدراها أنهما لن يخوناها في شيء آخر، القرار الوحيد الذي استطاعت اتخاذه هو أن تعطي نفسها مهلة أسبوع تحصل عليه كإجازة وتسافر بمفردها مع ابنها، تعلم أن محمد سيرحب بتلك الفكرة التي جاءتته كهدية من السماء ليتفرغ لحبيبة القلب، جهزت حقائبها وارتدت قناع الصبر وهي تهاتفه لتخبره برغبة

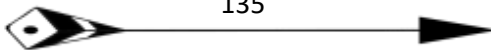


الولد في رؤية البحر وأنها ستذهب به وحدها كي لا يتعطل عن عمله.

انطلقت بالسيارة إلى الغردقة، تقودها بأقصى سرعة تشعر أنها لا تدوس على الإسفلت بل تدوس على مشاعرها عواطفها على سنواتها منذ حادثة الجبل... على إخلاصها وتفانيها وحبها لزوجها وعلى شفقتها ورأفتها بصديقتها.. على أفكارها التي تغيرت وتحولت من النقيض إلى النقيض تدوس عليها فكرة فكرة... كل ما أرادته وسعت إليه تحطم وتهشم أمام عينيها كل حلمها في السعادة والاستقرار أصبح سراباً.

وهناك أمام البحر جلست تدندن بصوتها الحزين وتذكرت أولى أغانياتها التي صورتها وسط البحر وكانت سبب شهرتها وسبب كل ما حدث بعد ذلك... استعادت كلماتها ولحنها وغنت... في البدء كان صوتها مبوحاً ضعيفاً مهزوزاً ومع تذكرها لكل أغانيها بدأ يقوى شيئاً فشيئاً... وما شجعها أكثر التفاف الناس حولها على

الشاطئ مصنفين ومطالبين بالمزيد، البعض منهم تذكرها وتذكر
الحادث الذي كان سبباً في اختفائها، والبعض يجهل وجودها، لكنها
لم تكن تعلم بوجود أحد الملحنين بينهم والذي اغتنم الفرصة
وطلب منها لقاء عمل وبعد تفكير وتردد أعطته موعداً مؤجلاً
بعد عودتها إلى القاهرة، أما القرار الأهم فقد قررت ألا تخبر محمد
ونهلة بما عرفته حتى يمين الوقت المناسب.



3

-قلت لك لقد تغيرت تبدلت منذ سفرها إلى الغردقة وحدها لم
تعد ليلي التي أعرفها عينها تحبى الكثير وجهها به شيء مختلف.
-هذه أوهام في رأسك ناتجة عن إحساسك بالخوف من معرفتها
الحقيقة.

-حبيبي أنت لا تعرف خبايا النساء فالمرأة لديها حاسة لا توجد
عند الرجال هذه الحاسة تخبرهن بما يحدث وما سيحدث.
-دعك من كل هذا طالما إنها لا تعرف شيئاً فلا توجد خطورة من
هواجسك ثمّ إنها انشغلت عنا بفكرة عودتها إلى الغناء.
-وهذا في حد ذاته مصيبة أكبر من الأولى، ثمّ كيف تكون بهذا
التدين وتسمح لها بالغناء؟

-وما المانع أن تغني أغاني دينية أو وطنية كان أبي الشيخ رحمة الله
عليه يسمع التواشيح الدينية.



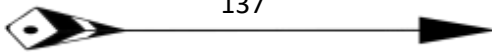
حدجته بنظرة غضب فارتبك وهو يقول:

- يكفيني أن تنشغل عن الشجار معي والتركيز في أوقات غيابي
عن البيت.

-أنت تخذع نفسك لأنك لا تريد الخسارة.

-لا توجد أي خسارة فمعي زوجتي وحببتي وابني ومالي أنا رجل
محظوظ لا ينقصني شيء.

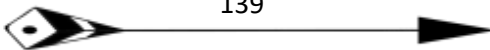
لم تنجح نهلة في إقناع محمد بالتغيير الذي أصاب ليلي ولم تستطع
اكتشاف سر هذا التغيير المفاجئ، فقط انتظرت حتى تكشف لها
الأيام ما تخبئه عنها، لكن هذا لم يمنع عن محمد زيارة أحد
الكوابيس المزعجة؛ رأى ابنه يقف على قمة الجبل وهو يحاول
بصعوبة الصعود إليه وقبل الوصول إلى القمة يجد نفسه أسفل
الجبل مرة أخرى... لا يعتقد في الخرافات ولا يؤمن بأسطورة
سيزيف لكن الحلم أقلقه وشغله كثيراً.



وفي تلك اللحظة التي اعتقد فيها أنه امتلك كل شيء في العالم، كانت ليلى تصور أغنيبتها التي بدأتها منذ لحظة تحطم الطائرة وسقوطها فوق قمة الجبل، فقد أدت نفس المشهد الذي حدث في الحقيقة وبعد أن تتفجر الدماء من ساقها تشم الذئاب رائحة الدم وتقرب منها فننهض وتركض بخوف لكنها تتعثر وتسقط، فتلتف حولها الذئاب في دائرة مغلقة ولا تجد مخرجاً فستسلم وتغمض عينيها، وفجأة تسمع دوي الرصاص فتفتح عينيها وتجد كل الذئاب مقتولة وغارقة في الدماء وعلى مرمى البصر ترى من يقترب منها بالخطوة السريعة ويحملها ويعود بها.

نجاح الأغنية دفع المنتجين ليعرضوا عليها المزيد من الأعمال المميزة، وكانت ليلى شديدة الحرص في الاختيار، فهي لا تريد مجرد شهرة فارغة، بل تريد الانتقال من نجاح إلى نجاح، لذلك تفرغت للفن، أغلقت الشركة وعرضتها للبيع دون مشورة أحد، وفي اليوم التالي أخذت ابنها في رحلة صيفية لإحدى المنتجعات السياحية.

وبعد سفرها فوجئ محمد بمحضر يسلمه خطاباً من المحكمة
عبارة عن إعلان بدعوى الطلاق التي رفعتها ليلي، كما فوجئت
نهلة ببطاقة تهنئة مع هدية قيمة بمناسبة الزواج من زوجها
والهدية عبارة عن ألبوم أغانيها.



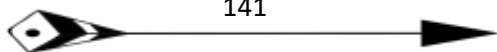
ووسط صخب الأمواج كانت تمسك بقارورة زجاجية على وشك أن تلقيها في البحر حين فوجئت بأحد كبار المنتجين يقترب منها ليعرض عليها الزواج... ألقى الزجاجاة ورفضته في هدوء فهي لازالت في حاجة إلى فترة هدنة لتستريح وتنسى كل الذئاب الذين عرفتهم في حياتها، واستسلمت لهم ليفترونها قبل أن تنتبه لوجود ما يسمى بالمنقذ والذي حتماً ولا بد موجود في مكان ما ويبحث عنها.

- أين كنت يا حبيبتى.

نظرت خلفها فوجدت هيثم يلقي إليها الكرة لتلعب معه فطراً في خاطرها أنه ربما كان هذا الصغير هو المنقذ الذي تبحث عنه ويبحث عنها، وأنها ربما تُعيد صياغة كل حساباتها مرة أخرى في كل القرارات التي اتخذتها حديثاً بعد أن تحصل على وثيقة طلاقها. أخذت هيثم وغابت بين الأمواج لعلها أرادت أن تلقي بكل العذابات الماضية في أعماقه أو تُعرف هيثم على صديقها الجديد

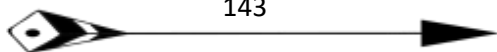


فتسبح في اتساعه وتعود إلى الشاطئ كما عادت من حادثة الجبل
امرأة أخرى تفكر في رداء يناسبها، لكن هذه المرة ليست وحدها،
معها من يدفعها إلى الحرص على النجاة.





تمت بحمد الله



رواية

ليلى والذئاب

عزة مصطفى عبد العال



الطبعة الأولى

1443 هـ - 2021 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com